مكتبة
الدراسات التاريخية

تاريخ الدولة الزيانية

بتلمسان

لابن الأحمر

تقديم وتحقيق وتعليق
هاني سلامة

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
للنشر والتوزيع

تاريخ الدولة الزيانية

بتلمسان

لابن الاحمر

تقديم وتحقيق وتعليق

هانى سلامة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر

ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧

مكتبة الثقافة الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل خلق الله الصادق الأمين صاحب السيرة الذكية محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وبعد،

يقول الدكتور حسين مؤنس عن دولة بنى زيان أو بنى عبد الـواد فى إقليم تلمسان

عندما تداعت دولة الموحدين ، وضعفت قبضة المصامدة على ما سادوه من بلاد المغرب، أتيحت الفرصة للزناتيين ليتخلصوا من سيادة المصامدة والصنهاجيين عليهم ، ويتخففوا من المغارم التى أثقلوهم بها، ويعودوا إلى ما ألفوه دهوراً طويلة من السيطرة على أرياف المغرب وحواضره ، والإثقال على أهلها بالمغارم والغارات دأب البدو مع من يجاورهم من الحضر فى كل زمان ومكان.

وقد تمكن بنو مرين الزناتيون من الحلول محل الموحدين بعد صراع طويل تسرب الزناتيون خلاله وانتشروا فى سهول المغرب ووديانه، فسيطروا على ممر تازا ثم على حوض وادى سبو وعلى بلاد تافللت وسجلماسة، وأخذوا يُطْبِقون شيئاً فشيئاً على ما بقى للموحدين من بلاد لم تزد فى النهاية

على حوض نهر تانسيفت الذي تقوم على أحد فروعه مراكش، ثم قضوا على الموحدين جملة كما رأينا.

زناتة بعد الغزوة الهلالية:

وبنو مرين وبنو وطاس وبنو عبد الواد – أو بنو زيان الذين نتحدث عنهم الآن – يدخلون ضمن من يسميهم ابن خلدون بزناتة الطبقة الثانية. والطبقة الأولى منهم عنده هم مغراوة التي سيطرت على فاس بالإضافة إلى قبيلة أَوْرَبَة الصنهاجية وقبائل أخرى أقامت الدولة الإدريسية، وبنو يفرن ملوك سلا كما يقول ابن خلدون أيضاً. ولم يكن هؤلاء ملوكاً بل كانوا سادة قبليين، وهم أبناء عمومة مغراوة، وفرعهم الكبير مغيلة. ومغيلة هي التي حملت عبء دولة أبي قرة المغيلي أو اليفرني، ذلك الإمام الخارجي الذي أقام دولة خارجية صفرية في المغرب الأوسط، عاصرت دولة بنى صالح بن سعيد الحميري وأولاده السنيين أصحاب نكور. وإلى دولة أبي قرة هذه يرجع تاريخ الزناتيين فى المغرب الأوسط الشرقي وسيطرتهم عليه، حتى إن ابن خلدون يسمى شرقي المغرب الأوسط هذا – وعاصمته تلمسان – ببلاد زناتة.

وزناتة التى يتحدث عنها ابن خلدون بمناسبة قيام دولة الثلاثة الكبرى فى المغرب – وهي دولة بني مرين وبني وطاس وبني عبد الواد – ليست زناتة القديمة التي عرفها العرب لأول دخولهم المغرب متمثلة في قبائل هوارة ولواتة ونفوسة وجراوة (قبيلة الكاهنة) وبرغواطة قوم ميسرة وخالد بن حميد الزناتي ومن إليهما من كبار زعماء الخارجية أيام الفتنة الخارجية الأولى، فزناتة الأولى

بربرية صرفة أسلمت واستعربت بعض الشيء، أما زناتة التي نتحدث عنها الآن فهي زناتة المسلمة المستعربة التي تأثرت تأثراً عميقاً بالغزوة الهلالية، قال في ذلك ابن خلدون: "فاعلم أن جيل زناتة في المغرب جيل قديم معروف العين والأثر. وهم لهذا العهد آخذون من شعار العرب في سكنى الخيام، واتخاذ الإبل وركوب الخيل، والتقلب في الأرض، وإيلاف الرحلتين، وتخطف الناس من العمران والإبانة عن الانقياد إلى النَّصفَةِ، وشعارهم من بين البربر اللغة التي يتواطنون بها، وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة البربر، ومواطنهم في سائر مواطن البربر بإفريقية والمغرب"(١).

فهم على ذلك زناتيون متعربون في أسلوب الحياة والتفكير، فقط تعلموا من العرب الهلالية سكنى الخيام واتخاذ الإبل وما إلى ذلك مما ذكره ابن خلدون، وتعلموا منهم كذلك تخطف الناس من العمران والإباية من الانقياد إلى النصفة(١).

وهي ليست من خصال العرب الأول ولكنها من خصال عرب الجيل الرابع، الذين يسميهم ابن خلدون بالعرب المستعجمة؛ لما كان من استعجام ألسنتهم وفقدانهم اللغة العربية السليمة، ومن هؤلاء عرب بني هلال بن عامر ابن صعصعة، وبني سليم بن منصور أصحاب الغزوة الشهيرة أو التغريبة التي تحدثنا عنها.

---

(١) يريد ابن خلدون بالنصفة هنا القانون والعدل، انظر ابن خلدون جـ٧ ص ٢

نحن هنا إذاً أمام زناتة الطبقة الثانية من زناتة، المتأثرة بعرب الجيل الرابع وهم زناتيون غيروا مواطنهم كما غيروا أسلوب حياتهم وخصالهم خلال القرن السابع الهجري. ومواطنهم الجديدة تختلف عن مواطنهم الأولى، ويحددها ابن خلدون بقوله "فمنهم ببلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الأقصى، حتى إنّ عامة تلك القرى الجريدية بالصحراء منهم، ومنهم قوم بالتلول بجبال طرابلس وضواحي إفريقية، وبجبال أوراس بقايا منهم سكنوا مع العرب الهلاليين لهذا العهد، وأذعنوا لحكمهم، والأكثر منهم بالمغرب الأوسط، حتى إنه ينسب إليهم ويعرف بهم، فيقال "وطن زناتة". وهذا تغير في المواطن جدير بالملاحظة، فقد كان المغرب الأوسط لأول أيام الفتح موطن الصنهاجيين، ومنهم أوربة قبيلة كَسِيلة الأوْربي الذي عرفناه، ثم كان موطن بني زيري بن مناد وهم صنهاجة الجيل الأول كما يقول ابن خلدون، وقد دخل الزناتية المغرب الأوسط وغلبوا على نواحيه نتيجة لضغط العرب الهلالية عليهم، فاتجهوا إلى المغرب الأوسط، أيام بني زيري بن مناد ودولتهم، وبعضهم وصل في فراره أمام بني هلال إلى المغرب الأقصى، وقال ابن خلدون "ومنهم بالمغرب الأقصى أمم أخرى، وكان بنو مرين منهم قبل استيلائهم على ملك المغرب أحياء ظواعن بمجالات الفقر من فيجيج (فجيج) إلى سجلماسة ملوية، وربما يتخطون ف ظعنهم إلى بلاد الزاب" والمراد هنا بنو مرين، وقد ذكرنا ذلك من أمرهم، وفي ذلك يقول ابن خلدون: "ويذكر نسابهم أن الرياسة كانت فيهم في تلك العصور لمحمد بن ورزيز بن فكوس بن كوماط بن مرين. ومرين يتصل نسبه بزنا يحيى أبي الجيل أي أبي هذه الأجيال من زناتة".

وقد لاحظنا عن بني مرين تغيراً اجتماعياً سياسياً آخر لا يقل عما أشر
إليه من تغير في بنيان الزناتيين وطابعهم البدوي، وهو ضعف العصب القبلي ف
المغرب كله نتيجة لهلاك الألوف بعد الألوف من الصنهاجيين الذين أقاموا دو
المرابطين والمصامدة الذين أقاموا دولة الموحدين ، فقد ضعف الحيان ضعفاً بالـ
حتى لم يعد للعصب القبلي هذا الوزن الكبير الذي كان له أول الأمر، وأدّ
تزايد خطر الغزو الإسباني البرتغالي إلى انتقال الرياسة من رؤساء القبائل إ
أهل الزوايا من شيوخ الطرق الصوفية، واتسع نطاق هذه الطرق وحـ
شيوخها ومقدموها ومريدوهم محل الحكام في النواحي، وانتشرت زواياه
وأصبحت هذه الزوايا مراكز القوة في المغرب الأقصى، وهذا كله يفسر لنـ
كيف تمهد الطريق لرياسة الشرفاء السعديين أولاً ثم العلويين ثانياً في القُطـ
المغربي.

وقد صور لنا ابن خلدون ظاهرة استئصال الكثير من رجال المصامـ
في عبارة بالغة الأهمية أتى بها في مطالع كلامه عن بني مرين. فقد قال
السبب في دخول بني مرين لهذا القطر المغربي (يريد المغرب الأقصى) أنه لـ
كانت وقعة العقاب بالأندلس سنة تسع وستمائة وهُزم الناصر وهلك الجمه
من حامية المغرب ورعاياه حتى دخلت البلاد من أهلها ثم حدث عقب ذلـ
الوباء العظيم الذي تحيف الناس إلا قليلاً...

ثم يتحدث بعد ذلك عن ضعف الدولة الموحدية إثر هزيمة العقاب
يقول: "وكان بنو مرين موطنين ببلاد القبلة من زاب إفريقية إلى سجلماسـ

ويتنقلون بين تلك القفار والصحارى، لا يدخلون تحت حكم سلطان ولا تنالهم الدولة بهضمية ، ولا يؤدون إليها ضريبة كثيرة ولا قليلة، ولا يعرفون تجارة ولا حرثة، وإنما شغلهم الصيد وطراد الخيل والغارات على أطراف البلاد . وكانت طائفة منهم ينتجعون تخوم المغرب وتلوله زمان الربيع والصيف فيكتالون من أطراف البلاد ما يحتاجون إليه من الميرة ويُرْعُون فيها تلك المدة أنعامهم وشاءهم، حتى إذا أقبل فصل الشتاء اجتمع نجعهم بآكر سيف، ثم شدوا الرحلة إلى بلادهم فكان ذلك دأبهم على السنين.

فلما كانت سنة عشر وستمائة أقبل نجعهم على عادته للارتفاق والميرة، حتى إذا أطلوا على المغرب تبينوا من ثناياه أن ما ألفوه قد تبدلت أحواله، وبادت خيله ورجاله وفنيت حماة أبطاله، وعريت من أهله أوطانه، وخف منها سُكّانه وقُطّانه، ووجدوا البلاد مع ذلك طيبة المنبت، خصيبة المرعى، غزيرة الماء، واسعة الأكناف، فسيحة المزارع، متوفرة العشب، لقلة راعيها، مخضرة التلول والربى، لعدم مُغَاشِيها؛ فأقاموا بمكانهم وبعثوا إلى إخوانهم فأخبروهم بحال البلاد وما هي عليه من الخصب والأمن وعدم المُحَامِي والمُدَافِع ؛ فاغتنموا الفرصة وأقبلوا مسرعين بنجعهم وحللهم، وانتشروا في نواحي المغرب، وأوجفوا عليه بخيلهم وركابهم، واكتسحوا بالغارات والنهب بسيطها ، ولجأت الرعايا إلى حصونها ومعاقلها، وتم لهم ما أرادوا من الاستيلاء على بسيط المغرب وسهله، وانتجاع مواقع طله ووَبْلِه ...".

دخول بني عبد الواد المغرب الأوسط

هكذا دخل بنو مرين وبنو عمومتهم بنو وطاس بلاد المغرب الأقصى وبسطوا سلطانهم عليها وورثوا الموحدين فيها على ما فصلناه. وفي ذلـ الوقت أيضاً دخل فريق آخر من الزناتية الجدد بلاد المغرب الأوسط واستقر في ناحية تلمسان، وهم بنو عبد الواد أو بنو زيان، وليس لدينا شيء موثـو فيه عن أوليائهم؛ لأن المراجع التي كتبت عنهم في عصرهم وأهمها " بغية الروا في تاريخ بني عبد الواد" لأبي زكريا يحيى بن خلدون وهو أخو عبد الرحمن بـ خلدون، و"الدرة السنية" تحكي عن أصلهم حكايات هي أشبه بالأساطير، بـ تجعل لهم نسباً شريفاً علوياً. وعلى أي حال فقد دخل بنو عبد الواد المغرب الأوسط في غضون هذا الاندفاع الزناتي العام على بلاد المغربين الأوسط والأقصى؛ نتيجة ضعف صنهاجة ومصمودة وفراغ البلاد ممن يحميها من الغزاة كما قال ابن خلدون في عبارته التي أتينا بها.

وكان بنو حفص الذين ذكرنا أخبارهم في إفريقية قد انتهزوا فرصة هذا الفراغ؛ فبسطوا سلطانهم على شرقي المغرب الأوسط واحتلوا بجاية وإقليم الزاب، ووصلوا بحدودهم إلى المجرى الأعلى لنهر شلف. أما بقية المغرب الأوسط، من وهران عند مصب نهر شلف إلى مجرى نهر الملوية وقاعدته تلمسان فقط بقي منطقة فراغ مفتوحة أمام الزناتيين.

في هذا الفراغ امتدت واستقرت وتوسعت مجموعة قبائل بني عبد الواد أو بني زيان، نسبة إلى منشئ دولتهم يغمراسن بن زَيان. وكان بنو عبد الواد

فرعاً من زناتة طرابلس، ثم اندفعوا غرباً أمام الغزوة الهلالية، واستقروا في أراضى المراعي جنوبي وهران، وهناك عاشوا نحو قرن من الزمان حياهم البدوية الفقيرة، ودخلوا في طاعة الموحدين وخدموهم، واكتسبوا نظير ذلك حق الاستيطان في منطقة وهران وما يليها غرباً حتى تلمسان، وكان رؤساؤهم يتقاضون من الموحدين جُعلا لقاء معاونتهم إياهم في حماية هذه النواحي من أعداء الموحدين. ثم عهد إليهم خلفاء الموحدين في أخريات أيامهم في عِمَالة تلمسان، فاستقروا فيها وفي ما حولها، وحصنوها وأصبحت إقطاعاً ثابتاً لهم.

وتلمسان وما حولها إقليم فسيح من أوفر أقاليم المغرب بالخيرات ووسائل الرخاء. فهي منطقة سهول وهضاب كثيرة الوديان وافرة الأمطار في الشتاء، وهي تؤدي إلى ممر تازا، وهو المدخل إلى المغرب الأقصى ؛ ولهذا كانت عناية الرومان بهذه المنطقة عظيمة، فكانت قلب ولاية مرطانية السطيفية Mauretania setifiensis ، وفي موقع تلمسان الحصين أقام الرومان معقلاً يسمى Pomaria وهو الاسم القديم للبلد. وبعد الفتح الإسلامي عندما وقفت حدود دولة بني العباس عند وادي شلف؛ قامت في إقليم تلمسان دولة خارجية، وهي دولة أبي قرة اليفرني أو المغيلي، الذي اتخذ لقب الإمامة على مذهب الإباضية الصفرية وخوطب بأمير المؤمنين أربعين سنة كما قال هو نفسه، واستمرت هذه الدولة الخارجية قائمة حتى قضى عليها المرابطون في حركتهم العامة للقضاء على بقايا المذاهب غير السنية في المغربين الأقصى والأوسط.

بنو يفرن الزناتيون في تلمسان

وكان جنوبي هذه المنطقة قبل الإسلام مستقراً لقبيلة بني يفرن الزناتيـ التي كانت منازلها تمتد حتى مدينة سلا، وكانوا بدواً رعاة. وهم من بطون زنـ الضخمة، وهم أبناء عم، جيرانهم مغراوة الذين كانوا دائماً يعيشون في الجـ الشرقي من جبال الريف ويمتدون إلى حوض نهر سبو. كان المغراويون سـ مدينة وليلي الرومانية الأصل، كما كان أبناء عمومتهم اليفرنيون سادة بومار الرومانية. وسلا على شاطئ الأطلسي. والقبيلتان بنتا عم تندران – في مـ يقول النسابة – من بني واسين بن إيسلتين، ولا زال اسم ايسلتين باقياً إ اليوم في بلدة إيسلي الواقعة في ممر تازا، وقد شهدنا إلى الآن معارك كثيرة تدو حول إيسلي للسيطرة على هذا الممر الجغرافي الهام، وهنا أيضاً سيكسـ الفرنسيون انتصارهم على قوات سلاطين المغرب من الشرفاء العلويين عندمـ قرروا أن يمدوا سلطانهم على المغرب الأقصى من المغرب الأوسط سـ ١٩١٢م.

وكما أقام اليفرنيون دولة في ناحية تلمسان فقد شارك المغراويون فـ إقامة دولة الأدارسة، وكانوا أقوى عمدها، وهم الذين حضنوها حتى أفرخت، وكان ذلك في الأغلب بعد قضاء العرب على قوة قبيلة أَوْرَبَة الصنهاجية الـ كانت سيدة المغرب الأقصى في أثناء الفتح الإسلامي كما رأينا.

وعندما قامت الدولة الفاطمية على أكتاف قبيلة كتامة الصنهاجيـ وقف بنو يفرن والمغراويون موقف العداء منها. وهو عداء يعتبر مظهراً مـن

مظاهر عداء صنهاجة وزناتة القديم. وانضم الفريقان: بنو يفرن ومغراوة إلى الأمويين الأندلسيين في صراعهم مع الفاطميين على سيادة المغربيين الأوسط والأقصى. وقد أفاد الجانبان فائدة كبيرة من تأييد بني أمية، فكان الخلفاء – وخاصة عبد الرحمن الناصر لدين الله وابنه الحكم المستنصر – يفيضون الأموال والأسلحة والخلع والهدايا على شيوخ مغراوة وبني يفرن. وفي تلك الفترة ظهر رمن رؤساء بني يفرن محمد بن خزر وأبو يعلى، وبعد انتقال الفاطميين إلى مصر وذهاب الدولة الأموية الأندلسية، انفردت مغراوة بجبال الريف الغربية وتبحبح بنو يفرن في منطقة تلمسان وممر تازا. وفي أيام أبي قرة كانت تلمسان خارجية وكانت مستقر إمامة هذا الرجل. وهو – فيما يقول الرواة – الذي أعطى تلمسان هذا الاسم ، وفي أيام الأمويين وبعد زوال أمر إمامة أبي قرة اليفرني تلاشى أمر المذهب الخارجي من تلمسان ونواحيها ، واهتم بها وبإقليمها خلفاء بنيأمية الأندلسيون فأفاضوا الأموال على رؤساء القبائل الزناتية فيها فتحوّلت تلمسان وإقليمها إلى مركز للسنة ومعقل لأهلها في غربي المغرب الأوسط. هذا ما يؤكده البكري، وكان لبني يفرن لدى بني أمية الأندلسيين مكان أعظم مما كان لمغراوة . حقيقة كان زيري بن عطية المغراوي من كبار أنصار بني أمية أيام الناصر لدين الله والمستنصر، ولكنه كان دائم الخوف منهم. ويحكي ابن خلدون أن زيري بن عطية المغراوي لبى دعوة المنصور محمد بن أبي عامر لزيارة قرطبة، وهناك لقي كرامه كبرى وخلع عليه المنصور لقب الوزير، فلما عاد إلى بلاده أمسك برأسه وقال: الآن فقط أنت لي! كأنه كان يخشى القتل في قرطبة، ثم رفض لقب الوزير قائلاً: إنني أمير ابن أمير ابن أمير. ووقعت النفرة بين المنصور

والمغراويين، ولكن بني يفرن ظلوا من أكابر أتباعه، وبعد ذهاب الخلافة قامت دويلة. بفرنية في رندة في الأندلس، وقام بنو برزال – فرع من بني يفرن – بإقامة دويلة في تاكرنا في الأندلس أيضاً.

ولكن سيطرة بني يفرن على إقليم تلمسان لم تدم طويلاً، فقد دفعت الغزوة الهلالية فروعاً من لواتة وهوارة إلى الغرب، من بينهم بنو عبد الواد الذين يعتبرون من الزناتية الجدد أي المتأثرين بالهلالية، فاستقروا في هذه الناحية، واختلطوا مع بني يفرن، وأصبحت لهم السيادة عليهم، واشتد ساعدهم بتأييد الموحدين ، وطال مقامهم في الناحية حتى أصبحت وكأنها قطاع دائم لهم. وعندما تفككت الدولة الموحدية قام من بين بني عبد الواد رئيس نشيط قادر هو يغمراسن بن زيان، فأعلن نفسه أميراً في تلمسان، وحصنها وطال عمره فحكم نحو خمسين سنة ١٢٣٦م–١٢٨٢م ثبت خلالها قواعد هذه الإمارة الزناتية ، إلى الشرق من أراضي بني وطاس الذين سادوا بلاد مغراوة في شمالي المغرب الاقصى، واعتزوا بتأييدهم، وكانت تلمسان – قبل يغمراسن – تتكون من بلدتين: تلمسان، وهي الحصن أو القصبة، وتاجرارت، وكانت فيها مساكن الناس. فضم يغمراسن الاثنتين إحداهما إلى الأخرى وحصنهما معاً، وجعل تلمسان الجديدة هذه قاعدة المغرب الأوسط كله كما يقول ابن خلدون.

أهمية موقع تلمسان

وقد درس الجغرافي المؤرخ الفرنسي أ.ن.جوتييه موقع تلمسان بما عرف عنه من الصدق ودقّة النظر: وقال: "إنه يبدو أن الأوضاع الجغرافية استدعت أن تقوم في إقليم غربي المغرب الأوسط قاعدة إلى الغرب من مدينة الجزائر؛ لأن الطريق الذي يخترق التلول في منطقة الخانق الكبير الذي يمتد من توات إلى روسيون، والخط الممتد من تلمسان إلى مصب التافنا، حيث قامت مدينة سيجا عاصمة سيفاكس (الزعيم البربري التوحيدي الكبير الذي حارب الرومان). وهذا الطريق لا يختلف كثيراً عن الطريق الممتد من أشير إلى المدية، ثم إلى مليانة، ثم الجزائر. معنى هذا أنه كما قامت مدينة الجزائر عاصمة للمغرب الأوسط الغربي قامت مدينة أخرى على الطريق الذي تحدثنا عنه وهي تلمسان". ثم يضيف هذا الجغرافي المؤرخ النافذ البصير الملاحظة التالية: "وبعيداً عن تونس الحفصية في الطرف الآخر من البلاد يظهر شيء جديد يشرح لنا أهمية قيام تلمسان هنا. فقد قام مركز تجمع مدني يرث موقع بوماريا الرومانية، إن تلمسان الحديثة عاصمة الغرب وهي من إنشاء يغمراسن وبني عبد الواد". وقد انتبه ابن خلدون إلى هذه الحقيقة ووعاها وعياً كاملاً وسجلها، وقال: إنّها أصبحت قاعدة المغرب الأوسط الشرقي من أيام دولة الموحدين، ومن أيديهم أخذها وانفرد بها يغمراسن بن زيان.

قيام دولة بني عبد الواد في تلمسان

وكان صعودها إلى مستوى العواصم تجسيداً لبعث زناتة وانتصارها

النهائي، والحق أن قيام دولة بني عبد الواد لا يرجع إلى مهارة منشئيها بقدر ما يرجع إلى الحظ الذي ساقهم إلى موقع تلمسان، وطول تاريخ بني عبد الواد فيها -حوالي ثلاثة قرون - لا يرجع كذلك إلى صلابة بنيان الأسرة التي أقامت الدولة ومن أيّدها من القبائل الزناتية، وإنما يرجع إلى حصانة موقع تلمسان وقدرة هذا الموقع على مقاومة عوامل الانهيار. فهي في موقع وعر يحكم الطريق من قلب الصحراء إلى البحر وقوافل التجارة لا بد أن تمر بها والهضبة التي تقوم عليها تزيد من مناعتها؛ والسهل المحيط بها يقدم لها موارد العيش في وفرة. ولقد تدهور بنو عبد الواد ثم عادوا إلى النهوض أكثر من مرة، واختفوا ثم عادوا إلى الظهور أكثر من مرة كذلك، والفضل في ذلك لتلمسان. ثم إن صنهاجة كانت قد استهلكت، فقد استلحمتها الموقع، وأكلتها الدول والحروب كما يقول ابن خلدون وبقيت زناتة؛ لأن البدو أقدر على مغالبة حوادث الدهور ن الحضر، فهم ليسوا في حاجة إلى أموال ومنشآت وجند وعتاد، وكل ما يلزمهم السيف والجمل والحصان والماشية، وفجاجد الصحراء يهربون إليها ساعة الخطر . فإذا زالت الأخطار عادوا إلى مغازاة الحضر، وتلك هي قوة الإنسان الفطري وامتيازه على الحضري وبعد الصراع الطويل على طول العصور الإسلامية وهنت قوى صنهاجة في المغرب الأوسط، وتضعضعت قوى مصمودة وصنهاجة في المغرب الأقصى ، وتعبت تلك الجماعات القبلية الضخمة من حمل عبء الدول والحضارات، وحل محلها الصوفية والشرفاء في المغرب الأقصى. أما البدو - أقصد زناتة - فقد ظلت قوتهم على حالها دائماً. فهم يحملون مسئولية أنفسهم فحسب، ويعيشون على ماشيتهم حيناً وعلى ما ينهبونه من

الحضر حيناً، وتظل قواهم الدهر الطويل على حالها؛ لأن الخطر إذا دهمهم هربوا بأنفسهم في القفار دون أن يفقدوا شيئاً كثيراً؛ لهذا طال عمر زناتة، وزاد على أعمار صنهاجة ومصمودة.

هذه ملاحظات لابد منها لنضع يدنا على سرِّ قوة بني عبد الواد ودولتهم الزناتية وسبب عمر دولتهم الطويل من ١٢٣٦-١٥٥٠م.

إن الأمر الذي يستوقف النظر في تاريخ بني عبد الواد هو أن جهدهم الأكبر كان منصرفاً إلى المحافظة على كيانهم وسط حشد من الأعداء كانوا يحيطون بهم من كل جانب، فقد كانت تلمسان مطمعاً لكل جيرانها؛ لأنها كانت بلداً زاهراً جداً بمَتَاجِره؛ نظراً لموقعه الجغرافي الذي أشرنا إليه، وقد كانت تلمسان خلال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي من أكبر أسواق السلاح الوارد من أوروبا عن طريق ممالك إسبانيا النصرانية، وقطلونية خاصة، ثم من الجمهوريات الإيطالية وموانئ فرنسا الجنوبية، وكان هذا السلاح يرد إليها حيث يبادله تجارها بالعاج والأبنوس وتبر إفريقية بصورة خاصة، والصوف وريش النعام والريش الملون والتوابل والطرائف الإفريقية التي كان الناس يقبلون عليها، وخاصة قيساريتها[1]. ثم إن تجارها اشتهروا بالذمة والأمانة وحسن المعاملة، فكانت سوقها هي المفضلة عند عامة التجار،

---

(١) القيسارية هي الشارع المخصص لتجارة الذهب والفضة والجواهر والعاج والأبنوس والقمشة النفيسة وكل ما غلا من المتاجر. وفي القيسارية أيضاً تكون دكاكين الصيارفة. وكانت القيساريات لذلك تحصّن وتحرس حراسة شديدة بالأبواب الضخمة على مدخلها ومخرجها، وكانت في العادة تتبع السلطان، واسمها نفسه مشتق من لفظ قيصر.

وكان يغمراسن بن زيان مؤسس الأسرة رجلاً ذكياً، تنبه إلى أن هذه التجا مورد خير كبير لدولته، فأحسن معاملة التجارة وشارك هو وبعض أهل بيته التجارة، وارتفع شأن التجارة والتجار نتيجة لذلك.

هذا الخير الكثير الذي كانت تجلبه التجارة كانت سبب المطامع تملك تلمسان. وهو ما جعل تاريخ بني عبد الواد على طوله تاريخاً عسكرياً كل حروب ومنازعات ومكائد. وقد درب أمراء بني زيان على العيش في ذلك الجو المضطرب، فكانوا هم بدورهم لا يترددون في التدخل في شئون أولئك الجيرا وإعانة بعضهم على بعض، وكانت هذه السياسة جزءاً من وسائل بني زيان المحافظة على بقائهم، وكان بقاؤهم عسيراً، زاد في عسره أن السند الشرعي لرياسة بني زيان في تلمسان كان سنداً واهياً، فقد كانا أولاً وأخيراً غاصبين مستبدين حازوا هذا البلد بالذكاء والحيلة والمكر، وحكموا أهله حكم المستبد القاهر للمستضعف المقهور، وكان الحفصيون والمرينيون جميعاً ينكرون إمارة بني زيان، ويدَّعون لحق في ضمها إلى بلادهم.

موقعة تلاغ وهزيمة بني عبد الواد:

(١٢ جمادى الآخرة ٦٦٦هـ / يناير ١٢٦٧م.)

كان الحفصيون من ورثة الموحدين في إفريقية أشد الطامعين في السياد على تلمسان وإزالة بني عبد الواد منها أول الأمر ، فلم يكد يغمراسن بن زيان

يستقر في البلد ويقيم إمارته فيها سنة ١٢٣٥م حتى هاجمه أبو زكريا الحفصي طامعاً في البلد سنة ١٢٤٢م. وتمكن يغمراسن من رد هذه الغارة، وبعد ذلك وَالَى أمراء بني مرين المحاولات لإخضاع تلمسان دون توفيق. ويبدو أن يغمراسن كان البادئ بالعدوان؛ فإن يعقوب بن عبد الحق المريني لما تمكن من فاس ومكناس وبدأ الصراع بينه وبين أبي دبوس ، خليفة الموحدين الذي انحصر ملكه في إقليم مراكش، أخذ يستعد لمنازلة بني مرين الخارجين عليه، فكتب أبو دبوس إلى يغمراسن بن زيان يستعين به على يعقوب بن عبد الحق المريني، فسارع يغمراسن إلى الاستجابة لهذا الطلب أملاً منه إضعاف قوة أبناء عمومته، المرينيين الزناتيين مثله، الذين بسطوا سلطانهم على حوض نهر سبو وسيطروا على ممر تازا المؤدي إلى بلاده. فأخذ يشن الغارات على بلادهم، فأثار ذلك حفيظة يعقوب بن عبد الحق المريني، فترك حصار مراكش واتجه إلى عاصمته فاس، وعبأ جيشه ليسير إلى تلمسان ونهض إليها في منتصف المحرم سنة ٦٦٦هـ، واخترق ممر تازا ونزل أكرسيف ثم تافرطاسنا، وكان اللقاء بين الجانبين عند وادى تلاغ.

وهناك دارت رحى معركة من أعنف ما وقع بين القبيلتين الزناتيتين الكبيرتين، وقد بلغ حماس الجانبين للقتال حد أن النساء برزن في القباب سافرات على سبيل التحريش والتحريض – كما يقول السلاوي في الاستقصا[1] – وفي يوم الاثنين الثاني عشر من جمادى الآخرة سنة ٦٦٦هـ /

(١) جـ٣ ص ٢٦.

يناير ١٢٦٧م نزلت ببني زيان هزيمة كبرى قتل فيها أبو حفص عمر بـ يغمراسن بن زيان، وكان كبير أولاده وولّي عهده، وهلك في المعركة نفر مـ أكبر رجال بني زيان. ومع ذلك فقد صبر يغمراسن وظل في خيرة رجاله ساقة جيشه المنهزم يحمي ظهره، فكان رداً لمن بقي من رجاله حتى خلصوا مـ ممر تازا، وأمنوا عندما أفضوا إلى بسائط تلمسان.

وقد كان لهذه الواقعة أثر بعيد، فأقصر يغمراسن بن زيان عن بـ مرين، ولكن قلبه كان يتقد كالجمر حقداً عليهم؛ لما أصابوه من قتل ولد وكان يعقوب بن عبد الحق المريني يعرف ذلك؛ فأبقى قوة كبيرة من جنده ممر تازا لحراسة بلاده من شر يغمراسن بن زيان، وصمم على القضاء على بقي دولة الموحدين في مراكش لكي لا يكون دائماً بين عدوين.

وبعد شهرين من وقعة تلاغ نهض يعقوب بن عبد الحق بجيوش نحو مراكش مصمماً على الخلاص من أمر الموحدين؛ فبدأ يغزو أراضي عرب الخُلْط إقليم تادلا، واستباح أراضيهم وشتت شملهم، ثم دخل أراضي صنهاجـ فاستباحها، ثم تقدم نحو مراكش لينازل المصامدة وآخر سلاطينهم أبا دبوس.

وحشد هذا الأخير كلّ ما تيسر له من قوى الموحدين، وتظاهر يعقوب ابن عبد الحق بالتراجع إلى الشمال وأبو دبوس في أثره، فلما بلغ وادي غفو انقض يعقوب المريني على الموحدين فمزق جيشهم إرباً إرباً وقتل أبا دبوس ودخل المريني مراكش يوم الأحد ١٩ محرم سنة ٦٦٨هـ / ١٨ سبتمب ١٢٦٩م ، وانتهت بذلك دولة الموحدين وحل محلها بنو مرين كما ذكرنا.

وفرغ بنو مرين بعد ذلك للصراع مع بني زيان.

وقد أكمل يعقوب بن عبد الحق المريني عمله بحملة كبيرة على منازل عرب رياح في وادي أم الربيع ، وأنزل بهم خسائر فادحة كسرت قوتهم هناك، وقد سبق أن ذكرنا أن أولئك العرب من رياح والمعقل كانوا قد احتشدوا في وادي أم الربيع وما يليه جنوباً بموافقة الموحدين، وجعلوه قاعدة لقوتهم فى المغرب الأقصى.

وتحرج مركز بني عبد الواد نتيجة لذلك؛ لأن يعقوب بن عبد الحق المريني كان مع بدء صراعه مع الموحدين يصادق أمير إفريقية أبا عبد الله محمد المستنصر بالله بن أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص، وكان هذا يرى أنه أحق بعرش المغرب الأقصى وقاعدته مراكش من ضعاف بني عبد المؤمن المتأخرين؛ لأن أصل جدهم فصكه وهو أبو حفص عمر إينتى أى الهنتاتى من إقليم مراكش.

وكان المستنصر هذا يؤازر المرينيين ويهاديهم استجلاباً لمودتهم . وكانوا هم يخادعونه ويعلنون الطاعة له، واستمر هذا إلى أن استولى يعقوب بن عبد الحق على مراكش وخلاله المغرب كله.

ولكن يعقوب بن عبد الحق لم يلبث أن شغل عن بني زيان بخروج نفر من إخوته عليه، بسبب مبايعته لابنه أبي مالك عبد الواحد يعقوب بن عبد الحق، فأنكر ذلك نفر من إخوة يعقوب كانوا أشقاء وأبناء أمراء من نساء عبد الحق المريني سموا صوت النساء. وهؤلاء الثائرون عليه جميعاً من قرابته هم بنو

إدريس وبنو عبد الله وبنو رحُو، فطاردهم يعقوب حتى ظفر بهم، ثم صالحـ
وذهب واحد منهم وهو عامر بن إدريس بن عبد الحق إلى تلمسان واســ
براية يغمراسن بن زيان، أما بقية أبناء صوت النساء فقد ذهبوا إلى الأندلس
رجالهم، ودخلوا في سلك الغزاة المجاهدين في مملك غرناطة، وكان لهم في ذلـ
مناب عظيم.

موقعة إيسلي وهزيمة يغمراسن بن زيان؛ (صفر ٦٧٠ هـ/ أغسطس ١٢٧١م)

بعد أن فرغ يعقوب بن عبد الحق من أمر قرابته واستقر له أمر المغر
الأقصى ، طمحت نفسه إلى القضاء على آل بني عبد الواد وضم تلمسان
نطاق ملكه، خاصة وقد كان يخشى بأس يغمراسن بن زيان، ذلك الداهيـ
العاتي الذي سيطر بدهائه ومكره وقدراته على إقليم تلمسان الغني، الذي كـ
سلاطين المغرب الأقصى يرون أنه جزء من دولتهم.

وقد احتشد يعقوب بن عبد الحق لذلك، وجمع قواته من بني مريـ
وحلفائهم من العرب ومن دخل في خدمتهم من بقايا جند المصامدة وجماعة مـ
مرتزقة النصارى كانت تحارب في صفوف سلاطين المغرب يسمون حاميـ
الأمصار، ثم طائفة من المماليك الغز[1] كانوا قد هاجروا إلى المغرب الأقصـ

(١) كل المماليك الذين حكموا سلطنة مصر والشام كانوا من الأتراك الغزية، ولهذا فهم يسمون المماليـ
الأتراك أو المماليك القز أو الغز، وهؤلاء الغز الذين نتحدث عنهم في المغرب هم أحفاد الغز الذين دخلـ
المغرب الأقصى بعد غزوة بني هلال.

أيام حروب الموحدين مع بني غانية ومن آزرهم من العرب ومقاتلة المماليك على أقصى حدود مصر الغربية، وكانوا يسمون في المغرب ناشية أو ناشئة الغز.

وقد أحصى المؤرخون أفخاذ العرب الذين انضمت جماعات منهم إلى جيش يعقوب بن عبد الحق في هذه المناسبة، ومن المفيد أن نذكرهم هنا وهم:

- قبائل جُشَم أهل تامسنا، وهم سفيان والخلط والعاصم وبنو جابر ومن معهم من الأثبج.
- قبائل ذوي حسان والشبانات من المعقل أهل السوس الأقصى.
- قبائل رياح أهل أزغار وبلاد الهبط.

وقد حدث هنا ما يدل على ما كانت تنطوي عليه نفوس أولئك الزناتيين الجدد من طيب نفس وسلامة طوية وإيمان بالإسلام عميق. فقد وفد على يعقوب بن عبد الحق المريني وفد من بني الأحمر أصحاب غرناطة يستصرخونه ويبلغونه أن العدو قد كلب عليهم وأصبح أمر الإسلام في خطر ، فمال هو ومن معه إلى الاستجابة لنداء الجهاد، وعولوا على تغيير وجهتهم والذهاب إلى الأندلس.

ورأى يعقوب بن عبد الحق أن ينتهز هذه الفرصة ليصالح يغمراسن ابن زيان ليأمن جانبه؛ فأرسل إليه وفداً يبلغه ما انعقد عليه عزمه من الجهاد

ويدعوه إلى الصلح. ولكن يغمراسن رفض اليد التي امتدت إليه وقال إنه لن يصالح المريني قط بعد أن قتل ولده أبا حفص عمر بن يغمراسن.

ونتيجة لهذا الرفض سار يعقوب بن عبد الحق نحو تلمسان ليغزوها، وكان اللقاء على وادي إيسلي. وهناك انهزم يغمراسن هزيمة لاتقل عن هزيمة تلاغ على يد يعقوب بن عبد الحق، وخسر يغمراسن في هذه المعركة ابناً ثانياً من أبنائه هو أبو عنان فارس ونفراً من كبار أهل بيته. وثبت يغمراسن في جماعة من مرتزقة الفرنج الذين كانوا يحاربون معه حتى قتلوا جميعاً، ولم يبق أمامه مندوحة عن الفرار، ففر بعد أن أحرق فساطيطه، وتقدم يعقوب بن عبد الحق فاستولى على ما وجده منها فأباحها لجنده ثم حاصر تلمسان وضرب فساطيطه، وانضم إليه نفر من أبناء عمومة يغمراسن بن زيان ممن كانوا يحقدون عليه ويحسدونه، وكان على رأسهم أبو زيان محمد بن عبد القوي بن العباس بن عطية بن توجين من زناتة، وكانت العداوة بين يغمراسن وبني توجين شديدة متصلة.

وطال حصار يعقوب بن عبد الحق لتلمسان دون أن ينال منها منالاً، فقرر رفع الحصار والعودة إلى بلاده، ورأى قبل أن يفعل ذلك أن يطمئن إلى أن بني توجين يصلون إلى ديارهم في أمان، فأغدق عليهم العطايا من الخيول والجمال والأموال وبعث معهم من يوصلهم إلى ديارهم، ثم مضى هو بمن معه إلى المغرب الأقصى فوصل رباط الفتح في ذي القعدة سنة ٦٧٠ هـ / مايو ١٢٧٢م. وهكذا نجت تلمسان من بني مرين مرة أخرى، وأتيحت لسلطانها

يغمراسن بن زيان الفرصة لأن يعاود نشاطه ويلم شعث إمارته، وأمن من ناحية جاره القوي يعقوب بن عبد الحق الذي شغل بعد ذلك بأمر سبتة وطنجة ثم أمر الجهاد في الأندلس، وكان له فيه دور كبير رويناه في مكانه، حتى توفى في ٢٢ محرم سنة ٦٨٥ هـ / مارس ١٢٨٦م.

وكان اعتماد يغمراسن بن زيان في حروبه على أحلاف له أقوياء من عرب بني هلال وهم من بني سويد من بني زغبة، وكانوا أعداء لفريق آخر من بني هلال هم بنو ضوى بن عبيد الله من المعقل، وكانوا أعداء بني يغمراسن، وقد طالت الحروب بينه وبينهم حتى يقال إنه غزاهم اثنتين وسبعين مرة، وكانت منازلهم في غربيّ بلاده بين تلمسان ووجدة.

وكان بنو سويد الزغبيون الهلاليون عصب القوة العسكرية ليغمراسن، فأقطعهم الأراضي الواسعة. ثم استقدم يغمراسن عرباً آخرين من بني زُغبة وهم بنو عامر وبنو هميان؛ فقوي بهم جمعه وزادت قوته. وبفضل هؤلاء أضعف يغمراسن قوى بني ضوى الذين كانوا من أنصار المرينيين. وكانت هذه الجماعات من العرب التي دخلت في خدمة الزناتيين – سواء منهم المرينيون أو من بنو عبد الواد – يسمون بالصفوف (مفرده صُف بضم الصاد وهو تحريف) ، وبعد أن اطمأن يغمراسن من صفوف بني سويد وبني زغبة شعر بثقل وطأتهم عليه فصرفهم عن بلاده.

حكم يغمراسن بن زيان نيفاً وخمسين سنة هجرية (٤٨ سنة ميلادية) دل في أثنائها على أنه أمير ذكيّ قادر عنيد، فقد عرف كيف يؤمن دولته

ويحصنها ويحميها من بني حفص تارة ومن المرينيين تارة أخرى، حتى أصبحـ هذه الإمارة من أقوى إمارات المغرب طوال أيامه.

أبو سعيد عثمان بن يغمراسن بن زيان

(ذو الحجة ٦٨١هـ–ذو القعدة ٧٠٣هـ/١٢٨٢م–١٣٠٣م)

ولم يكن أبو سعيد عثمان أقل من أبيه صلابة وحزماً، فقد قضى سنوا حكمه القليلة في الدفاع عن بلده ومحاولة توسيع رقعته، حتى لقد حاول انتزا بجاية من أيدي بني حفص سنة ١٢٨٧م ولكنه لم يوفق في ذلك. وقد تعرض أبو سعيد عثمان بن يغمراسن لخطر شديد من جانب جاره ومعاصره أ يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني، فقد كان طمع هذا السلطان الاستيلاء على تلمسان شديداً. وكان المسئول عن ذلك هو أبو سعيد عثما نفسه، فقد كان أبوه يغمراسن قد نصحه بأن يصانع جيرانه المرينيين ويجتهد العيش معهم في سلام.

ولكن أبا سعيد عثمان نسى هذه النصيحة الذهبية أو أنسيها لقريب م ولايته، وكان قد بدأ ولايته بداية حسنة فأوفد أخاه محمد بن يغمراسن إ السلطان يعقوب المريني، وكان في الأندلس؛ لكي يصالحه، وتم الصلح فعلاً.

ثم انقضت بقية أيام يعقوب بن عبد الحق المريني وجاءت أيام ابنه أ يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، فحدث أن ابناً له يسمى أبا عامر كا قد ولاه مراكش فثار بأبيه، وظاهره في ذلك وزير له يسمى ابن عطوا، فسا إليه أبوه وهزمه، فانتهب الأمير ووزيره مال مراكش وفرا إلى تلمسا

١٢٦٩/٦٨٨، فما كان من أبي سعيد عثمان إلاّ أن أكرمهما وأجار أبا عامر على أبيه، ولم يكن ذلك من الحكمة في شئ.

ثم عفا السلطان أبو يعقوب يوسف المريني عن ابنه وأعاده إلى فاس ، ثم طلب إلى أبي سعيد عثمان أن يسلمه الوزير ابن عطوا، فرفض، فأثار ذلك حفيظة أبي يعقوب يوسف بن عبد الحق، فقرر المسير إلى تلمسان وحصارها حتى تقع في يده، واحتشد في ذلك احتشاداً لم يسمع بمثله، وتعرضت تلمسان بسبب ذلك لخطر من أشد ما مَرَّ بها في تاريخها.

يحدثنا ابن خلدون عن مسير أبي يعقوب يوسف المريني إلى تلمسان وحصاره لها حديثاً مستفيضاً قال فيه: "إنه بلغ من تصميم السلطان أبي يعقوب يوسف بن عبد الحق على الاستيلاء على تلمسان أنه أدار عليها سورين بينهما فَصِيل، وشدد في الحصار حتى لم يخطر إليها الطير لا بل الطيف، وابتنى مدينة كاملة إلى جوارها وأقام على الحصار مائة شهر وعندما دخلت سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م اختط إلى جانب ذلك السور بمكان فسطاطه وقبابه قصراً لسكناه واتخذ به مسجداً لصلاته وأدار عليهما سوراً يحرزهما، ثم أمر الناس بالبناء حول ذلك، فبنوا الدور الواسعة والمنازل الرحيبة والقصور الأنيقة، واتخذوا البساتين، وأجروا المياه، وأمر السلطان باتخاذ الحمامات والفنادق والمارستان. وابتنى مسجداً جامعاً أقامه على السهريج الكبير، وشيد له مناراً رقيقاً، وجعل على رأسه تفافيح من ذهب صير عليها سبعمائة دينار، ثم أدار السور على ذلك كله، فصارت مدينة عظيمة استبحر عمرانها، ونفقت أسواقها، ورحل إليها

التجار بالبضائع من جميع الافاق وسماها المنصورة" ومضى يشن الغارات علـ ما حول البلد حتى أضرّ بها، وربما كان هذا أطول وأشد حصار قرأنا عنه تاريخ الإسلام ، إذ لا يدانيه في ذلك إلاّ حصار بلنسية على يد السيد القبيطو في الأندلس وقد ذكرناه.

وفي غضون كلام ابن خلدون عن ذلك الحصار يأتينا ببيان عن أهـ ما استولى عليه أبو يعقوب يوسف من المدن التابعة لتلمسان، وهي نَدْرومـ وهُنَيْن، ووهران، وتالموت، وتامزدكت، ومستغانم، وشرشال، وبرشك والبطحاء، ومازونة، ووانشريس، ومليانة، والقصاب، والمِدْيَة، وتافرجينت وجميع بلاد بني عبد الواد، وبلاد بني توجين، وبلاد مغراوة. وهذا البيان يد على أن إمارة تلمسان كانت إمارة واسعة حقاً تشمل كل الجزء الشرقي مـ المغرب الأوسط من الساحل إلى الصحراء.

وفى أثناء ذلك الحصار بايع لأبي يعقوب يوسف بن عبد الحق المريني ا علان صاحب الجزائر وهابه كل أصحاب السلطان في نواحي المغرب الأوسط وكانت دولة بني حفص يومئذ قد انقسمت قسمين، "فصار كرسي منها بتونس وآخر ببجاية، فتنافس صاحب تونس وصاحب بجاية في مصانعة السلطا يوسف والتقرب إليه بالهدايا والتحف، وصار السلطان يوسف في ذلك الوقـ ملك المغرب على الحقيقة والإطلاق، والله غالب على أمره" كما يقول ابـ خلدون.

ولكن تلمسان لم تخضع لسلطان المغرب هذا؛ مما يدل على حصانتها التي لا تضارع، فقد ظلت صامدة للحصار دون أن يفكر أصحاب الأمر فيها في التسليم، ولكنهّم كانوا يخافون سقوط المدينة ووقوعهم في أيدي أعدائهم، ويتمثل ذلك في موت عثمان بن يغمراسن في أثناء الحصار سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٣م ويقال إنه سمّم نفسه مخافة من معرّة الوقوع في يد العدو[١]. وفي هذا يقول السلاوي: قال يحيى بن خلدون: "فاجتمع بنو عبد الواد بجيشهم وبايعوا ابنه محمد بن عثمان واجتمعوا عليه، ثم برزوا إلى قتال عدوهم على العادة، حتى كأن عثمان لم يمت ، وبلغ الخبر إلى السلطان يوسف (المريني) فتفجع على عثمان وعجب من صرامة قومه من بعده".

وقد هلك السلطان أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني في أثناء الحصار بعد ذلك سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٧م وكان موته إنقاذاً لآل بني عبد الواد من الهلاك المحقق، وكان أميرهم محمد بن عثمان بن يغمراسن قد أيقن بأن أمره انتهى، إذ عرف أنه لم يبق في البلد من القمح إلاّ ما يكفي اليوم والغد، وجلس هو وأخوه أبو عمر وفكرا في قتل نسائهم وحرمهم، وطلبت منهم قهرمانة القصر ذلك واسمها دعد، وذلك حتى لا يقعن في الأسر ويصبحن سبايا، واستقر الرأي على الانتظار إلى غد، وكان المفروض أن يندب نفر من اليهود والنصارى ليقوموا بقتل الحرم، إذ لا يتأتى ، فيما نحسب ، أن يقوم مسلم بقتل حرم البيت المالك، فإذا هم في هذا البلاء جاءهم الخبر بوفاة أبي

(١) تاريخ ابن خلدون ٧/٢٥٦-٢٥٧.

يعقوب يوسف، واختلاف آله على من يخلفه. ولجأ أبو ثابت إلى أخواله بني ورتاجن، وهم فرع من بني زيان منافس لهم، وطلب إلى بني زيان أن يعينوه على أمره، وتعهد لهم بالجلاء عن تلمسان وكل ما كان قد استولى عليه جده من بلادها ففعلوا، وصارت إمارة بني مرين إلى أبي ثابت بعد نزاع طويل، وأمنت تلمسان خطر بني مرين بعد ذلك زمناً طويلاً.

وقد بلغ عدد من مات من أهل تلمسان في هذا الحصار الطويل ١٢٠ ألف إنسان كما جاء في "بغية الرواد" ليحيى بن خلدون. وقد أورد هذا المؤرخ[١] تفاصيل كثيرة عما وصلت إليه حال أهل تلمسان من السوء، وجاءنا ببيان أسعار الحاجيات عندما بلغ الحصار أقصاه، حتى أسعار القطوط (كذا) والكلاب والفئران والحيات لأن ذلك كله كان يصاد ويؤكل أو يباع.

فترة الاحتلال المريني ١٣٣٦م-١٣٥٩م:

ومع أن دولة بن عبد الواد نجت من الضياع بوفاة أبي يعقوب المريني وانتهاء الحصار، فإن قوة البيت كانت قد تزعزعت على نحو لم تعد معه قط إلى ما كانت عليه أيام يغمراسن بن زيان. فقد تولى أمرهم أبو زيان بن أبي سعيد عثمان بن يغمراسن (١٣٠٤م-١٣٠٨م) وأراد أن ينتقم من البربر والعرب الذين مالأوا المرينيين في ناحية سيرْسو الواقعة جنوبي وهران، وأقوى جماعاتهم بنو يعقوب بن عامر من بني هلال، ولكنه لم يستطيع، واضطر إلى مصالحتهم.

(١) أبو زكريا يحيى بن خلدون، بغية الرواد في تاريخ بني عبد الواد، طبعة الجزائر سنة ١٩٠٣م، ص ١٢٥.

وخلفه أخوه أبو حمو موسى (١٣٠٨م-١٣١٨م) فبذل جهده في إصلاح ما وهي من أمر تلمسان، فأصلح أسوارها وحصنها ومد سلطانه غرباً حتى وادي الملوية، وتمكن من التوسع شرقاً على حساب الحفصيين فبلغ بجاية وقسنطينة، ثم ثار به ابنه وقتله ليتولى مكانه سنة ١٣١٨م.

وكان حكم ابنه هذا وهو أبو تاشفين بن أبي زيان شؤماً على بيت بني زيان، فقد كنت سنه خمساً وعشرين سنة وكان شاباً طائشاً لا يحسن تدبير الأمور وكان إلى جانب ذلك طموحاً سريعاً إلى الحركة، وقد تصور أنه يستطيع الاستيلاء على بجاية، وعسكر إلى جنوبيّها، وبنى محلة في موضع يسمى تمزيزدكت، واشتد خوف أبي بكر خليفة فرع الحفصيين في بجاية، وسعى إلى التحالف مع بني مرين عليه، ووجد أبو تاشفين نفسه بين عدوين من شرق وغرب، وزاد مركزه حرجاً أن تخلى عنه يعقوب بن عامر وعرب سويد، وكانوا يؤلفون كتلة قوته العسكرية، وأقبل السلطان أبو الحسن المريني يحاصر تلمسان، ودام الحصار سنتين، سقطت بعدها تلمسان في يد السلطان المريني سنة ١٣٣٧م، ومات في الدفاع عن قصر تلمسان عثمان ومسعود ولدا أبي تاشفين ثم قتل هو بعد ذلك.

ظلت تلمسان تحت سلطان بني مرين خمساً وعشرين سنة، فلم ينته احتلالهم لها إلاّ سنة ١٣٥٩م. خلال هذه الفترة وصل السلطان أبو الحسن المريني بتلمسان إلى ذروة غناها، واتجهت همته إلى إنشاء مدينة ملوكية له إلى غربي تلمسان، واتخذ فيها قصراً سماه قصر الفتح، وبنى مسجداً جامعاً، ثم أحيا

مدينة المنصورة التي كان جده أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق قد ابتناها في أثناء الحصار الطويل إلى جوار تلمسان فعمرت من جديد، وأنشأ في تلمسان نفسها المسجد الجامع الكبير المنسوب إلى سيدي أبي مدين شعيب كبير صوفية المغرب الأوسط وأعظم أوليائه.

وكان أبو الحسن المريني كما ذكرنا صهراً للحفصيين، وبسببهم وبسبب نصرته لهم كان إيقاعه ببني زيان واحتلال تلمسان. وباستيلائه عليها وصل ملكه وملك بني مرين جملة إلى أوجه، فقد شملت بلاده كل المغرب الأقصى المغرب الأوسط إلى أحواز بجاية وقسنطينة ودخلت غرناطة في طاعته.

وأراد أبو الحسن أن يعيد وحدة زناتة فاسترضى بني واسين أبناء عمومة بني مرين، وأدخل من بقى من بني عبد الواد في جنده، وضم إليه بني توجين وسائر زناتة، وصاروا عصباً واحداً تحت لوائه ، وسد بكل طائفة منهم ثغراً من أعمائه، فأنزل منهم بالأندلس حامية ومرابطين واندرجوا في جملته ، واتسع نطاق مملكته، وأصبح أبو الحسن ملك زناتة بعد أن كان ملك بني مرين، وسلطان العدوتين بعد أن كان سلطان المغرب فقط ، وإنا الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين (ابن خلدون).

ولكن أمر أبي الحسن هذا لم يدم طويلاً، كما رأينا فيما رويناه من أخبار بني مرين، فإن هذا الرجل الطموح استرسل مع طموحه إلى أبعد مما كانت قواه تستطيع، فكان في ذلك ضياع أمره وبعث أمر بني زيان من جديد.

وقد سبق أن ذكرنا في ما أتينا به من أخبار بني مرين كيف أن أبا الحسن انقلب على الحفصيين بعد أن صاهرهم مرتين، وكان انقلابه عليهم لأمر يتعلق بوراثة العريش الحفصي ولا دخل له فيه، ولكنه على أي حال سار إلى تونس ودخلها في ٨ جمادى الأخرة سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م وبذلك أصبح سلطان المغرب العربي كله من الأطلس إلى حدود طرابلس.

وهنا وبعد أن استقر له السلطان في إفريقية بدا له أن يقص أجنحة فروع بني هلال الذين كانوا فيها، ذلك أن جمهور الهلالية الذين دخلوا في إفريقية كان قد استقر في إفريقية والمغرب الأوسط، وأقلهم في المغرب الأقصى، فكانت في إفريقية عصائب أولئك العرب أو أعياصهم كما يقول ابن خلدون، وهم رؤساء بنى جشم بن معاوية بن بكر وبني هلال بن عامر بن صعصعة وبني سليم بن منصور، وكانت أغلبية بني سليم بن منصور وبعض بني هلال قد استقرت في إفريقية وأفادت من حاجة الدولة الحفصية إلى الجند، فمعظم أمرهم وملكوا الكثير من النواحي إقطاعات من خلفاء الحفصيين وفرضوا الجبايات على الناس، فلما دخلت البلاد في طاعة أبي الحسن المريني لم يرض هذا السلطان عن العرب، فأخذ يقص أجنحتهم، فخافوه، وثاروا على سلطانه، ونهبوا بعض البلاد ثم تظاهروا بالرغبة في الصلح معه، ووفد عليه منهم خالد بن حمزة أمير بني كعب ونفر من زعماءأولاد القوس من بني سليم في طلب الصلح، ثم شك في حُسن نيتهم، فعاد إلى العنف معهم، فأحسوا بالخطر وتجمعوا من كل صوب، واتحدت أحياء بني سليم من بني كعب وبني حكيم

وأتخذوا ملجأ بتوزر من بلاد الجريد وأمّروا على أنفسهم رجلاً من سلالة أب دبوس الموحدي.

وتذامر هؤلاء العرب وقرروا ملاقاة أبي الحسن في معركة حاسمة وتجمعوا وساروا إليه وكان ذلك بموضع يعرف بالتبنة بين بسيط تونس وبسيط القيروان، وفي يوم الاثنين السابع من المحرم سنة ٧٤٩هـ/ ٨ أبريل ١٣٤٨ دارت معركة حاسمة انهزم فيها أبو الحسن وضاع أمره، وأراد العودة إ سلطانة في المغرب فوجد ابنه أبا عنان فارساً المتوكل قد نادى بنفسه سلط بحجة أنه بلغه أن أباه مات في حربه مع العرب، وقد طال الصراع بين ه السلطان السيئ الحظ وابنه وانتهى أمره على صورة محزنة على ما رويناه.

عودة بني زيان إلى السيادة في تلمسان

واتجه نفر من زعماء الهلالية وبني سليم إلى تأييد بعض أمراء بني زي في إعادة بناء دولتهم، وبفضل معونتهم تمكن أميران من أمراء بني زيان م دخول تلمسان وإعادة دولة بني زيان ، وهما أبو ثابت وأبو سعيد من أولاد تاشفين (سنة ١٣٥٠م) ولكن الأمر لم يستقم لهذين الأميرين؛ لأن أبا عن فارساً المتوكل المريني استعان ببني سويد من عرب بني هلال ، وتمكن من تفر أمر العرب، ولكن الزواودة وبني عامر بن حامد تمكنوا من نصر أمير زياني

أبو حمو الثاني الذي كان معتصماً في تونس من سنة ١٣٥٩م إلى سنة ١٣٨٩م ودخلوا به تلمسان وهكذا قام أمر بني زيان من جديد.

السلطان أبو حمو موسى الثاني

تولى سنة ٧٦٠هـ/١٤٥٩م ثم نفي سنة ٧٦١هـ/١٣٥٩م ، ثم عاد إلى العرش وظل فيه إلى سنة ٧٧٣هـ/١٣٧١م، ثم عزل وعاد إلى العرش سنتي ٧٨٥هـ و٧٨٦هـ وتوفى سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م.

هنا يدخل بنو زيان في الدور الأخير، لأن قوتهم الأصلية كان أمرها قد وهن، وأصبح عمادهم من الآن فصاعداً على من يستطيعون الاعتماد عليهم من العرب الضاربين في نواحيهم أو من بني مرين، وأصبحت بلادهم نهباً موزعاً بين بني حفص حيناً وبني مرين في معظم الأحوال.

لهذا كان همُّ أبِي حمو موسى الثاني المحافظة على سلطان في تلمسان وما حولها، معتمداً على العرب الهلالية، وقد اعتمد أبو حمو أول الأمر على قبائل عامر بن حامد أبناء شيجر، وكانوا من أنصار البيت الزياني، واعتمد أبو حمو كذلك على قبائل المعقل، وكانت أعدادهم غفيرة في إقليم تلمسان، وأعانه في ذلك وزيره أبو مسلم.

وقد امتلأت أيام أبي حمو بالحروب، ولسنوات قليلة من حكمه تراخت قوى العرب الذين كانوا يؤيدون البيت الزياني، خاصة أن أبا عنان فارسا المتوكل المريني كان لا يكف قط عن مهاجمة تلمسان، واكتساح أراضيها في

محاولاته العديدة لبسط سلطانه على إفريقية. ولكن أبا حمو استجمع قواه ف سنة ١٣٣٦م وحاول الاستيلاء على بجاية فانهزم وفشل فشلاً ذريعاً، وكانت نتيجة هذه الهزيمة أن انكشفت بسائط تلمسان فدخلتها قبائل الحصين م المعقل وسيطرت على سهل ططري، ولم تتزحزح عنه بعد ذلك قط. وهكذ ساد هذا الفريق من الهلالية جزءاً فسيحاً من المغرب الأوسط وجبوا أموال واختلطوا بالزناتيين الذين كانوا سادته من قبل وغلبوا عليهم، وتحول سه ططري إلى مواطن قبيل من العرب الهلالية، هم في الحقيقة خليط من الزناتي والهلالية.

وحاول أبو حمو أن يستعيد سلطانه مستعيناً بفريق من عرب الزواود ولكن بني مرين وطائفة من عرب بني سويد ضيقوا عليه، فاضطر إلى مغادر عاصمته ولجأ إلى الزاب سنة ١٣٧٢م، وتمكن من العودة إلى عاصمته م أخرى بفضل وساطة وزيره وانزمار، وكان له مكان كبير عند أبي عنان فارس المتوكل. وعقب ذلك نَعِم بيت بني عبد الواد بفترة استقرار قصيرة لم تزد على سنوات عشر، وبلغ من ثقة أبي حمو في نفسه أن فكر في نقل عاصمته إ الجزائر (سنة ١٣٧٨م) ولكنه لم يلبث أن تهور في معاداة بني مرين، فتخلى عن وزيره وانزمار، وعاد بنو مرين إلى الضغط على تلمسان، وقام على أبي حم موسى ابنه أبو تاشفين بمعاونة عرب سويد وبني مرين، وفر السلطان إلى الجبا حيث مات وحيداً شريداً سنة ١٣٧٩م . وكان أبو حمو موسى الثاني هذا آخ الكبار من بني عبد الواد.

وقد عمرت إمارة بني زيان بعد ذلك عمراً طويلاً، ولكنه كان بقــــاءً مضطرباً مزعزعاً توالى فيه الأمراء واحداً بعد واحد، دون مجد أو فخـــر، وفي الغالب كان الأمراء يقومون ويختفون بتأييد من العرب أو من بـــني مريـــن أو الحفصيين. بل خضعت تلمسان في وقت من الأوقات لسلطان الإسبان عندمـــا تجرّدوا لاحتلال المغرب أيام فيليب الثاني خاصة، ولم يســـتنقذها للإســـلام إلاّ تدخل الأتراك العثمانيين وإدخالهم إياها في إيالة الجزائر سنة ١٥٥٤م وانتـــهى بذلك تاريخ بني زيان.

نظرة عامة على تاريخ بني عبد الواد

إن الناظر في تاريخ المغرب الأوسط خلال هذه القرون التي دامتها دولة بني زيان يرى أن تلك الدولة كانت على الحقيقة من صنع رجل واحـــد مـــن أعلام زناتة وهو يغمراسن بن زيان، ذلك المحارب السياسي العفي الذي نحـــت لنفسه ولآله إمارة كبيرة قامت في تاريخ المغرب بدور كبير. فهذا الرجل هـــو الذي استطاع أن يوسعَ لبني زيان مكاناً فسيحاً في تاريخ المغرب باستيلائه على تلمسان، وتحصينه إياها، وتوسيع رقعة سلطانها، واقتداره على مغالبة بني مرين وبني حفص، ومن فكر في العدوان على إمارته من العرب الهلالية، وهذا الرجل هو الذي أنشأ القوة الاقتصادية لتلمسان بسياسته الذكية الماهرة، وبعـــث في كيان أسرته روح الثبات والمقاومة والجلد على الحرب، وتلك الروح هي الـــتي مكنت للبيت من البقاء هذا الأمد الطويل.

وقد عرف الكثيرون من خلفاء يغمراسن بن زيان كيف يسيرون بمهار في خطى الشيخ الجليل، منشئ دولتهم، ولكن الكثيرين منهم فشلوا في ذلـ وأغراهم الطمع في السيطرة على المغرب الأوسط حتى بجاية وقسنطينة، فكـ في ذلك استتراف لقوة البيت الزياني؛ مما جعله في النهاية ضعيفاً عـــاجزاً عـ إقامة أَوَدِه فزاد اعتماده على العرب الهلالية. ولم تكن للبيت الزياني سياســـ واضحة إزاء أولئك العرب فتقلبوا من فريق منهم إلى فريق حسب الظـــروف وفي كل مرة يزداد تملك العرب للأرض وتسلطهم على المزارع والقرى وطرق التجارة، فسادوا أولاً إقليم السرسو جنوبي وهران، ثم سادوا إقليـــم ططـــر وهو قلب أملاك إمارة تلمسان، وشيئاً فشيئاً غلب العرب الهلالية على زناتة في مواطنها، وحولوها إلى زناتة عربية أو مستعربة أو عرب، وتلك كانت النتيجـ الواضحة الظاهرة التي نجمت عن تاريخ بني زيان، فقد دافعوا بني حفص مـــ ناحية وبني مرين من ناحية أخرى عن إقليم تلمسان الفسيح الغنيّ، واحتفظـو به حتى أسلموه إلى العرب الهلالية، وبعبارة أخرى أتاحوا له الفرصة ليتحـــوّ على مهل من أرض زناتية إلى أرض عربية هلالية. وتلك نتيجة بـــاهرة حقـ بالنسبة إلى تاريخ المغرب العربي. ومن الواضح أن بني عبد الواد لم يقصدوا إ ذلك، ولكن هذا هو الذي حدث، ولولا بنو زيان لما كان للمغرب الأوسط – هو جزء كبير من جمهورية الجزائر الحالية – ذلك الطابع العربي المسلم الشامل العميق.

والحقيقة هي أن الأسباب التي أدّت إلى قيام دولة بني زيان في تلمســا هي الأسباب نفسها التي أدّت إلى سيادة العرب هنـــا: فـإن زوال سـلطا

المصامدة أصحاب دولة الموحدين خلّف وراءه فراغاً واسعاً يمتد من جبال ططري في الجزائر الحالية إلى كل نواحي المغرب الأقصى، وهذا الفراغ سارع إلى ملئه الزناتيون: بنو مرين في المغرب وبنو زيان في تلمسان، وفي شمالي المغرب قامت دولة بني وطاس، وهي زناتية أيضاً. وعندما أقام يغمراسن بن زيان دولة بني عبد الواد الزناتية في تلمسان أحس أنه يملك الأرض والقاعدة والمال، ولكن الجند كانوا ينقصونه، فإن بني عبد الواد كانوا قليلين لا يستطيعون حماية المنطقة الشاسعة التي سيطروا عليها، وكان يغمراسن بن زيان بذكائه تنبه إلى أهمية التجارة والتجار؛ فأوسع لهم في بلده، وأضفى عليهم حمايته وخفف عنهم الجبايات وعاملهم بأمانة وعدل، وشارك هو نفسه في التجارة ، ورحب بالتجار الأجانب وأكرمهم وتركهم يشترون من بلده التبر والجلود والأبنوس والعاج وريش النعام والريش الملون وبعض التوابل، كل ذلك بسعر معقول مع ضمان الأمان. ومن ناحية أخرى حرص يغمراسن على حسن مراعاة الزرّاع في الأراضي الواقعة تحت نفوذه، فوفر لهم الأمن وخفف عنهم الجبايات فأحبوه وتعلقوا به، وهذا الأساس الذي وضعه يغمراسن لإمارته بالذكاء وبعد النظر - بالإضافة إلى طول حكمه الذي طال فوق الخمسين عاماً - أطال عمر الدولة كلها أكثر من ثلاثة قرون (١٢٣٥م-١٥٥٤م).

وكان يغمراسن عندما استقر له الأمر وكثر ماله في تلمسان قد غير اسمها القديم من تاجرارت إلى تلمسان، وتأنّق في بناء المدينة الجديدة التي أقامها على شط التافنا الذي يصب في البحر المتوسط شرق الملوية، وكانت المنطقة التي يمتد عليها سلطان المدينة الجديدة تضم مدناً أخرى أهمها بوماريا وهي

عاصمة لدولة أقامها الأجليد البربري سيفاكس في العصر الروماني. وكانت تقع على طريق تجاري رئيسي يشبه طريق آشير - ميديا - مليانة - الجزائر. وكانت مليانة تقع على ارتفاع ٨٠٦ أمتار، مما جعل جوها معتدلاً تحيط بها رياض ومزارع ذات أشجار، ومن هنا جاء اسمها اللاتيني بوماريا Pomaria، وقد كان البلد جميلاً جداً، ولم يبالغ أحد الشعراء عندما شبهها بعروس في خدرها، وكانت تقع وسط طريق تجاري يمتد من هنين - التي تبعد عنها ٣٦ك./ على البحر المتوسط - إلى سجلماسة قاعدة إقليم تافيلالت. وحتى في أيام الحروب والأزمات كان التجار يفضلون تلمسان على غيرها؛ لأمانها وجودة بضائعها، وخاصة الصوف والكتب التي اشتهرت بها، وليون الإفريقي - وهو الحسن الوزان - شهد لتجارها بالأمانة.

ولكن مشكلة تلمسان كانت في توفير أمنها؛ فقد كانت محصورة بين جيرانها الأقوياء، فمن الشرق (الحفصيون) ومن الغرب (المرينيون). وهنا تجلت عبقرية منشئ دولتها يغمراسن بن زيان (١٢٥٣م-١٢٨٣م) فقد عرف كيف يحافظ على استقلالها ضد المطامع التي أحاطت بها. وكان بنو مرين قد اصطدموا الزواودة وبني عبد الله من عرب المعقل ووجدوا فيهم سنداً قوياً.

وفكر يغمراسن بن زيان في أن يشد أزره بعرب من بني هلال، وكما أسند بنو مرين ظهورهم إلى عرب المعقل استعان هو بفريق من زغبة الهلاليين هم بنو سويد، وأنشأ منهم صُفَّاً - بضم الصاد - والصُّف في مصطلح تلك الأيام كان الفرقة من الجند ، وأغدق عليهم الأموال ومنحهم إقطاعات الأرض

فاستقروا، وانضافت إليهم صفوف من بني عامر وبني هميّان، ومن هؤلاء العرب تكوّن "مخزن" بني زيان، أي قوتها العسكرية. وعندما ضاق يغمراسن بمتاعب البدو من بني زغبة كان قد كون جنداً من أبناء من استقر منهم في الأرض، وتحضروا واستمر نفر من أولادهم يعملون في الجيش بعد التعليم والتدريب، وهؤلاء بالاضافة إلى مقاتلي بني زيان من بربر زناتة كانوا سند بني زيان وقوتهم.

والعبرة هنا أن العرب والبربر تجاوروا جداً واختلطوا وتصاهروا، وسادت اللغة العربية. أضف إلى ذلك أن يغمراسن وبني زيان كانوا متدينين جداً؛ فأكثروا من بناء المساجد والمدارس والأسبلة، وتوافد العلماء على تلمسان وأخذوا أماكنهم في المدارس والمساجد، يعلمون وينشرون فقههم، وتغيرت الناحية تغيراً حضارياً شاملاً، وهنا نفهم لماذا استبسل بنو عبد الواد في الدفاع عن دولتهم، فإنهم لو تركوا أنفسهم لبني مرين أو بني حفص لضاع أمرهم في واحدة من الدولتين المستبدتين من شرق ومن غرب، ولما كانت لدينا في النهاية تلك الجوهرة الإسلامية الحضارية العربية التي هي تلمسان. وهذا يعطينا مثالاً من أمثلة تكوُّن المغرب العربي. لقد كان مخاضاً عسيراً وطويلاً، وثمنه كان غالياً من الأرواح والأموال ، ولكنه أعطانا في النهاية بلداً قوياً عربياً متحضراً، وهذه فريدة يمتاز بها المغرب. ومهما بلغ من عنف العداوات بين الدولتين الزناتيتين بنتي العم – بني مرين وبني عبد الواد، فقد كانت النتيجة في النهاية خيراً. وكان يغمراسن الذي بدأ حكمه من أواخر أيام الموحدين ووقف إلى جانبهم ثم صانع المرينيين وكسب ودهم، وأوصى أولاده أن يحاذروا

من إغضاب بني مرين ، وأن يوسعوا ملكهم إذا أرادوا ناحية الشرق في أراضي الحفصيين وكانت دولتهم قد ضعفت ضعفاً شديداً بعد موت الخليفة الحفصي المستنصر. وهنا أيضاً لم يوفق الزيانيون إلى كثير؛ لأن بلادهم في ذاتها كانت واسعة كما رأينا، وكان يكفيهم أن يحافظوا عليها.

وقد لقي بنو زيان عناءً كبيراً من المرينيين، لأن طمعهم فيها وفي أراضيها كان شديداً بسبب أموالها. وقد حاصر أبو يعقوب عبد الحق المريني تلمسان ثلاث مرات، واحدة منها بدأت سنة ١٢٩٩م وطالت سنوات، وقد رأينا أبا يعقوب عبد الحق يبتني مدينة كاملة إلى جوار تلمسان وينشئ فيها الأسواق والمساجد والمدارس؛ لأنه كان قد قرر الاستيلاء عليها أو يموت أهلها جوعاً. وقد جاع أهلها فعلاً ولكنهم صبروا وصمدوا حتى أذهلوا أبا يوسف عثمان بن عبد الحق المريني، فقد استبسلوا حتى أعجزوا المرينيين؛ فانصرفوا عن تلمسان وهم يتعجبون من اتحادهم وتراص صفوفهم في الدفاع عن أنفسهم، وبعد أن انصرف المريني عن بلادهم استعاد بنو زيان كل البلاد التي كانت تابعة لهم، وهي: ندرومة، وهنين، وكاونت، وتالموت، وتامزدكت، ومستغانم، وتنس، وشرشال، وبلاد بني توجين، وبلاد مغراوة، وهذا لا يمنع من القول بأن أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني كان مؤسس أقوى دولة في المغرب في أيامه، قال السلاوي : وصار السلطان يوسف في ذلك الوقت ملك المغرب عن الحقيقة والأخلاق، والله غالب على أمره[1].

(١) السلاوي ٢/٣٩.

وقد ازدادت متاعب تلمسان أيام أبي الحسن سلطان بني مرين؛ فقد كان رجلاً نشيطاً في الهجوم على ما استطاع الهجوم عليه طمعاً في المال . وقد كانت تلمسان مطمعاً قريباً ، ولكن آل يغمراسن جعلوا الأمر عسيراً عليه كل العسر، فقد عجز الرجل عن الاستيلاء على بجاية ثلاث مرات، ولكنه رجاله في المرات الثلاث لم يكونوا يفكرون فيما يصيب الناس، فهذه المزارع والأشجار والمراعي والنخيل التي خربها هذا الرجل دون جدوى كانت أراضي ناس مساكين بسطاء يفقدون كل ما يملكون بأمثال هذه الغارات، وقلّ ما تنبت شجرة بعد أن تقطع، والنخلة تحتاج إلى عشر سنوات لتنمو وتثمر، وشيئاً فشيئاً سنجد هذه الأراضي الخصبة الواسعة تتعرى مما عليها من الأشجار وتتعرض التربة تحتها للتدهور، ثم تذروها الرياح أو تكتسحها الأمطار، ويصبح السهل خراباً . وحصار تلمسان الطويل دام ثمانية أعوام دون جدوى، ولكن سهول تلمسان البهيجة التي يتحدث عنها أبو عبيد البكري زالت وخربت بأفعال أولئك الأمراء الذين كانوا يسببون هذا الخراب كله، ثم يبنون المساجد والمدارس ليكفروا عما فعلوا. وعلى أي حال فقد ذهب أولئك الأمراء وذهبت أيامهم، وبقيت الشعوب رغم الحروب والخراب لقد بنى أبو سعيد عثمان مدينة جديدة إلى جوار تلمسان ليشدد حصارها منها وسماها "المحلة المنصورة" وأنشأ فيها الحمامات والمتاجر والمساجد والقصور فعمرت تلمسان الجديدة.

ولكن تلمسان القديمة خربت وجاع أهلها حتى بيعت الكلاب "والقطط" – كما تقول المراجع – والفئران والثعابين، بيعت بالثمن لأنها كانت

في ما يؤكل. ومات أبو سعيد عثمان سنة ١٣٠٧م، فوقّع ابنه أبو زيان صلح
مع أهل تلمسان وعاد إلى بلده، وخرج جنده إذ عادوا إلى أهاليهم في فاس بع
ذلك الشقاء، وقد هدم أهل تلمسان القديمة المحلة المنصورة وذهبت مع الأمـ
الدابر.

ومثل هذه الغزوات الرعناء تعطل مسار الحضارة وتفسد حياة النـاس
ولكن العرب أفادوا من الحصار ومن كل ما حدث، وبدأوا يستثمرونه علـ
طريقتهم التي تؤخر ولا تقدم. ولكن إكمال استعراب المغرب يرجع إلى بـ
هلال وبني سليم، فإن هؤلاء البدو هم الذين أكملوا بناء المغرب العربي
كما أن عرب بني رفاعة ومن أتى معهم مهاجرين هم أولئك الذين وضعـ
الأساس الحقيقي للسودان العربي.

تلمسان ودورها في التاريخ الحضاري للمغرب

من خصاص تاريخ المغرب أن كل ناحية فيه لها طابعها وشخصيت
ودورها في البناء السياسي والاجتماعي والحضاري للمغرب كله. وعلى الرغ
من الصورة السياسية الحالية للمغرب العربي، فإن مؤرخ المغرب وحضارتـ
لايمكنه أن ينظر إلى المغرب إلاّ على أنه قطر واحد، وأساس هذه الوحـد
الإقليمية هو الجغرافية أي الصورة الجغرافية للشمال الإفريقي كله غربي مصر
ولقد حاول بعض الجغرافيين الفرنسيين أن يزرع الشك في حقيقة هذه الوحد

كما نرى عند أ.ف جوتييه الذي لا نشكّ في مواهبه جغرافياً واجتماعياً وتاريخياً، ولكنه كان يكتب بروح عصره الاستعماري الذي كان يرى أن جمهورية الجزائر الحالية جزء من الوطن الفرنسي، فهو في كل حين يتحدث عن اختلافات بشرية وجغرافية تلقى في الروع أنّ المغرب أقاليم مختلفة لا إقليم واحد.

وإقليم تلمسان هو الجزء الشرقي من المغرب الأوسط، وحضارته تعطى الجزء الشمالي الغربي من جمهورية الجزائر الحالية طابعاً خاصاً، يتجلى بصورة خاصة في ناحية وهران، وهو يعتبر من أجمل نواحي العالم العربي كله وأغناها، فهناك تتحول جبال الأطلس إلى هضاب عالية خضراء نضرة وافرة المياه، ويتسع إقليم التل حتى يمتد إلى رمال العِرْق في جنوبي إقليم تلمسان عند فجيج، ويضم من المدن مجموعة من أجمل مدن المغرب العربي. فهناك دلِس والجزائر والمِديَة ووهران ونَدرومة وتِلمسان وهُنين وتاونت ووجدة التي كانت دائماً من بلاد بني عبد الواد، ووجدة تؤدي إلى تاورِْبرت على مداخل ممر تازا، وهو باب المغرب الأقصى من الشرق، وطالما تحدثنا عنه في هذا التاريخ، وهناك الأقاليم الغنية الواسعة: السِّيق وسِرْسو وطِطِري وما إليها.

استعراب زناتة

وكما تتبعنا في دراستنا لتاريخ المغرب الأقصى تطور العصبية فيه من القبلية إلى الإسلام، فكذلك تتبعنا في تاريخ بني زيان تحول زناتة إلى عرب، ونؤيد ما ذكرناه متفرقاً في غضون هذا الكتاب بفقرة في هذا المعنى كتبها

المؤرخ الفرنسي شارل أندريه جوليان ، وهو من أكبر العالمين بتاريخ المغرب في عصوره كافة، والمغرب الأوسط بصورة خاصة. قال تحت عنوان: "استعراب زناتة". (١)

"وبفضل الاضطرابات المزمنة التي سادت المغرب الأوسط انتشرت القبائل الهلالية في أقاليم التلول واستقلت بها. ويراد بالتلول هنا المنطقة الساحلية من المغرب، وهي في المغرب الأوسط تمتد حتى تشمل تلمسان وما يليها جنوباً حتى تاجرارت وجراوة العيش. فهنا تتحول جبال الأطلس إلى هضاب واسعة وافرة الأمطار والخصب، كثيرة الزرع، وهذه التلول تشمل هنا إقليم السرسو الذي يضم وهران وما يليها جنوباً، ثم إقليم ططري حول تلمسان. وعلى أولئك العرب الذين تأصلوا في هذه النواحي، كان عماد أمراء بني زيان الذين كانوا يعطون العرب الأراضي إقطاعيات ، ويجعلون لهم الحق في جباية أموالها، أي أنهم كانوا يملّكونهم إياها ويسوّدونهم على سكانها من البربر ومعظمهم زناتية. وقد استفحل أمر العرب نتيجة لذلك وغلبوا على زناتة في معظم نواحي المغرب الأوسط، والغالب هنا ثقافي أكثر مما هو سياسي أو عسكري، فإن الزناتيين ظلوا دائماً أقوياء، ولكن الذين استقروا منهم تحولوا إلى حضر وزراع، وهؤلاء يتغلب عليهم العرب البدو ...".

ويتابع شارل إندريه جوليان كلامه معلقاً على ما ذكره ابن خلدون فيقول : "ولكن البلاد التي امتد عليها سلطان العرب كما يمتد ظل الجبال على

(١) شارل أندريه جوليان، استعراب زناتة، جـ٢ ص ١٦٠.

ما يليها من الأرض عندما يميل النهار إلى الأصيل لم تكن كما رأينا في كلام ابن خلدون أرض خلاء فعلى الرغم من الحروب والخراب فإن قبائل زناتة ظلت تقيم في مواطنها الجديدة شرقي نهر الملوية وتمد سلطانها على شمالي المغرب الأقصى".

في وسط هذا الإقليم الجميل لتقوم تلمسان بين تلال ووهاد مشرفة على ما حولها ومتوسطة للطريق التجاري الرئيسي المؤدي من وهران إلى تلمسان ثم إلى فجيج، أو من مرسى هنين إلى تلمسان إلى فجيج أيضاً. وهي عاصمة إقليم غني يفسر لنا السر في ازدهارها أيام بني عبد الواد . ولقد كانت ظروف هذه الإمارة كما رأينا عسيرة كل العسر ، فهي بين الحفصيين من شرق وبني مرين من غرب ، ثم إن أراضي إقليمها اجتذبت عرب بني هلال بن صعصعة وبني سليم بن منصور بصورة خاصة، فتبحبحوا فيها وضربت جذورهم في أرضها، وعلى الرغم من أنهم كانوا مصدر قلق وخطر على سلامة الإمارة وعاصمتها، فإنهم في الوقت نفسه كانوا مصدر قوة لها، فإن الزناتيين الذين قامت عليهم إمارة بني عبد الواد أيام يغمراسن بن زيان لم يلبثوا أن تأثروا بتوالي الحروب وضرورات الدفاع، وهنا حل العرب محلهم فأصبحوا مصدر القوة العسكرية لإمارة بني زيان، وقد كان عرب بني هلال وبني سليم أغراباً عن البلاد أول الأمر، وظلوا كذلك من منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي إلى منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي عندما ضعفت قوى صنهاجة من ناحية ومصمودة من ناحية أخرى ودخلت الميدان زناتة في المغربين الأوسط والأقصى، والدول الزناتية – كما

رأينا – دول قلقة كثيرة الحركة لا تتوقف حروبها، وينقصها دائما ما نسميه بالانضباط، فلا يكاد حكم سلطان من سلاطين بن مرين أو بني وطاس أو بني زيان يخلو من منافسين من أهل بيته، وما أكثر ما قام الأبناء على الآباء في سبيل العرش ، وهي ظاهرة تتجلى بصورة أشبه بالقصص في حياة أبي الحسن المريني وما جرى عليه من الأحداث ، وفي كل حالة من هذه الحالات يعتمد القائم على السلطان على فريق من العرب يؤيده.

وهذا القلق وتوالي الحروب هو الذي أضعف زناتة وجعل القوة العربية ضرورة هنا، فلم يعد الهلالية أغراباً، ودخلوا في سياسة البلاد دخولاً ظاهراً جداً في إمارة بني زيان، ودخلوا بشكل أقل ظهوراً في المغرب الأقصى، وشيئاً فشيئاً – كما رأينا – تحولت بقايا زناتة إلى عرب بعد اختلاطها بالعرب الهلالية في المغرب الأوسط. أما في المغرب الأقصى فقد أخذ التحول كما رأينا – صورة تحول اجتماعي ديني انتقل معه الولاء القبلي إلى الولاء الديني، وحلت الزاوية أو الطريقة الصوفية محل الرابطة القبلية، وكان هذا تطوراً واسع المدى أدى إلى قيام دول الشرفاء السعديين أولاً ثم العلويين بعد ذلك حالّين محل دول صنهاجة ومصمودة.

وفي أيام بني زيان ازدهرت كل مدن الإمارة وخاصة تلمسان التي أصبحت في أيامهم أزهر مدن المغرب بعد القيروان وتونس وفاس ومراكش، واتسعت رقعتها حتى أصبحت تضاهي فاس من حيث السعة ووفرة المباني السامقة وكثرة المساجد وتعدد الأسواق.

وإذا نظرنا إلى أهمية التبادل التجاري بين إفريقية وأوروبا عن طريق تلمسان ووهران أو مرسى هنين نجد أن تلمسان قد أصبحت في أيام يغمراسن ابن زيان مركزاً تجارياً مالياً رئيسياً في المغرب كله، ونستدل على ذلك بالمنشآت التي يحدثنا عنها المؤرخون مدة تسع سنوات، ولكي تنشأ هذه المنشآت في إقليم تلمسان لابد أن يكون غنياً جداً ومدخراته لابد أنها كانت وافرة. وقد حدثنا يحيى بن خلدون عن ثراء البلد وفخامة منشآته حديثاً مستفيضاً، وحدثنا كذلك عن كثرة من ظهر به وعاش فيه من العلماء.

ويكفي أن نذكر المدارس الخمس الكبرى التي أنشئت فيها في أيام تلك الأسرة الطويلة العمر.

ويحدثنا البكري أن تلمسان كانت دائماً بلد علم وعلماء ومركز سنة وجماعة، وكان بنو زيان من رعاة العلوم، فاستقدموا أهل العلم والأدب، وخاصة الشعراء، وأحاطوا أنفسهم بالفقهاء على مثال ما كان يفعله جيرانهم ومنافسوهم بنو مرين وبنو وطاس. وكذلك كثر في تلمسان أهل التصوف والصلحاء والعباد، ولا غرابة في ذلك، ففي بلدة من بلاد منطقة تلمسان وهي بلدة العُبّاد استقر أبو مدين شعيب وليّ المغرب الأكبر، ثم إن الأخطار التي أحاطت بالبلد جعلت الناس يتجهون بقلوبهم إلى الله سبحانه ملتمسين منه الأمن والحماية، وجعلتهم يزدادون تعظيماً لأهل الله وأوليائه وخصوصاً سيدي الداوودي.

وأهم ما بقي من منشآت بني عبد الواد مئذنتا مسجدي تلمسان الكبيرين وجامع أغادير، ويبلغ ارتفاع مئذنة مسجد أغادير أربعين متراً، وهي مئذنة من طراز مغربي صافٍ غاية في الجمال، إذ أن بدنها الأعلى يرتكز على بدون مبني بالحجر، وزخارف هذه القاعدة تعتبر من أجمل وأدق ما لدينا من النقوش العربية المنحوتة في الصخر. ويزداد المسجد الجامع الكبير بقبة بديعة تقوم على قاعدة مثمنة ، وإلى جوارها ترتفع المئذنة السامقة التي تذهب في الجو صاعدة أربعة وثلاثين متراً.

وقد وجد يغمراسن بن زيان في تلمسان قصر إمارة كبيراً بناء المرابطون، وهو قصر تجرارت المسمى بالقصر القديم قرب المسجد الجامع، فأنشأ غير بعيد منه قصراً ضخماً حصيناً يسمى المَثْوَر، وقد زال معظمه الآن، ولكن بقي لنا وصفه في "بغية الرواد". وكان هذا المثور مقام الأسرة وحصنها، ففيه مساكنها ومخازنها وأهراؤُها وبيوت أموالها وحرسها.

وقد تنافس بنو زيان مع بني مرين في الاحتفالات بالمولد النبوي الشريف في أبهة زائدة، وكان الاحتفال بالمولد بدعة جديدة في المغربين الأوسط والأقصى في ذلك العصر. وقد ذكر لنا السلاوي من كان أول من احتفل بالمولد من بني مرين، وكان احتفال ليلة المولد يدوم طول الليل ، وكان يقام في القاعة الكبرى في المثور فتضاء ثرياته الضخمة، ويجلس السلطان وقرابته وحاشيته في أجمل ملابسهم فيستمعون للمدائح النبوية وتلاوة القرآن الكريم،

ثم يصلون العشاء، ويقدمون الطعام ثم يجلسون للشعراء والمغنين ويستمر ذلك حتى تقام صلاة الفجر ثم ينصرف الناس.

وقد ذكر جورج مارسيه ثلاثة آثار بديعة باقية إلى اليوم في تلمسان وهي زاوية سيدي أبي الحسن التي أنشأها أبو سعيد عثمان في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، وهي صغيرة ولكنها بديعة الهندسة ، فإن بيت الصلاة بها تحيد به بواتك ذات عقود على هيئة حدوة الفرس أقرب إلى الهيئة البصلية تقوم على ثمانية أعمدة قصيرة دقيقة من المرمر، ومساحتها تسع بلاطات ومحرابها تزينه طاقية فريدة في بابها، لأنها مزينة بالمقرنصات والجدران مزينة بزخارف الجص، وهذه الزخارف تعد من أجمل ما نعرف من الزخارف الإسلامية، والسقف من الخشب المنقوش الملون، وهناك أيضاً جامع ولد الإمام، وهو أصغر من الأول ولكنه لايقل عنه جمالاً.

وقد أكثر الأميران أبو تاشفين وأبو حمو الثاني من المنشآت الدينية والمدنية ولكن لم يبق لنا من منشآتهما إلا القليل، وهذا القليل يدل على تدهور فن المعمار والزخارف في البلد، ومثال ذلك مسجد سيدي إبراهيم من إنشاء أبي تاشفين.

لقد قامت إمارة بني زيان بإرادة رجل واحد هو يغمراسن بن زيان وطال عمرها بعد ذلك بفضل الظروف التي ذكرناها. ومن المؤرخين من يقلّل من شأنها ولا يرى أنها أضافت إلى تاريخ المغرب العام شيئاً كبيراً. ولكن الحقيقة

أن هذه الإمارة أحيت المغرب الأوسط وعمرّته، وأتاحت الفرصة لتعريبه تعر كاملاً.

وإليها يرجع الفضل في تمدين الكثير من بلاد المغرب الأوسط مثـ مرسى هنين والمدية وندرومة ووجدة، بل مدينة الجزائر نفسها، وإذا كـانـ تصاريف التاريخ قد شاءت أن يقوم في المغرب الأوسط كله في عالمنا اليوم بلـ عربي مجيد هو جمهورية الجزائر الزاهرة، فإن دولة بني عبدالواد تعتبر من أهـ الدول التي كونت الماضي الحافل لذلك البلد العربي. ويكتفي أن نذكر أنها هـ التي أعطت المغرب الأوسط حدوده التاريخية ، فإن الأتراك عندما ضموا المغر إلى ملكهم جعلوا بلاد إمارة بني زيان على وجه التقريب إيالة كاملة من إيالا المغرب في أيامهم، ونقلوا العاصمة من تلمسان إلى الجزائر لتي استنقذوها مـ الإسبان.

بَنُو عَبدُ الوَاد وَهُمْ بَنو زيَّان

توقيت

١- أبو يحيى يغمراسن بن زيان ٦٣٣هـ-٦٨١هـ/١٢٣٦م-١٢٨٢م

٢- أبو سعيد عثمان (الأول) ذو الحجة ٦٨١هـ -
بن يغمراسن بن زيان ذو القعدة ٧٠٣هـ/
١٢٨٢-١٣٠٣هـ

٣- أبو زيان محمد (الأول) ذو القعدة ٧٠٣هـ - ٢١
بن عثمان: شوال ٧٠٧هـ/
١٣٠٣م-مارس١٣٠٧م

٤- أبو حمو موسى الأول بن عثمان: وتولى من ٧٠٧هـ إلى ٧١٨هـ/
(قتله ولده في ٢١ جمادى الأولى ١٣٠٧م-١٣١٨م
سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م)

٥- أبو تاشفين عبد الرحمن (الأول) ٢٣ جمادى الأولى ٧١٨هـ/٧٣٦هـ
ابن موسى: مارس ١٣١٨م-١٣٣٦م.

بنو زيان تحت السيادة المرينية

- أبو الحسن علي: (شوال ٧٣٦هـ-٧٣٧هـ/مايو ١٣٣٦م-١٣٣٧م.
- أبو عنان فارس: ٧٣٧هـ-٧٦٠هـ/١٣٣٧م-١٣٥٩م مرينيان

زناتيون كانوا في المنفى وأعلنوا أنفسهم حكاما في الوقـ
نفسه:

- أبو سعيد عثمان الثاني بن عبد الرحمن ت. جمادى الأولى ٧٥٣هـ/
يونيو ١٣٥٢م.
- أبو ثابت الزعيم بن عبد الرحمن

استمرار خط بني زيان

٦- أبو حمو موسى (الثاني) بني يوسف، صفر سنة ٧٦٠هـ/
(فى المنفى سنة ٧٦١هـ يناير١٣٥٩م
ومن سنة ٧٧١هـ إلى ٧٧٣هـ
ومن ٧٨٥هـ إلى٧٨٦هـ، ٧٨٩هـ):
أبو زيان محمد (الثاني) بن عثمان بن عبد الرحمن
٣ رجب ٧٦١هـ/مايو ١٣٥٩م

٧- أبو تاشفين عبد الرحمن (الثاني) مستهل ذي الحجة ٧٩١هـ-٧٩٥هـ
بن موسى (توفى في ١٧ رجب نوفمبر ١٣٨٩م-يونيو١٣٩٣م.
سنة ٧٥٩هـ).

٨- أبو ثابت يوسف بن عبد الرحمن، رجب ٧٩٥هـ/يونيو١٣٩٣م.
(أربعون يوماً).

٩- أبو الحجاج يوسف بن موسى، ٧٩٥هـ/١٣٩٣م.
(عشرة أشهر):

١٠- أبو زيان محمد (الثالث) بن موسى، المحرم ٧٩٦هـ/١٣٩٣م
(عامل بني مرين).

١١- أبو محمد عبد الله (الأول) بن موسى: ٨٠٠هـ/١٣٩٧م.

١٢- أبو عبد الله محمد (الثاني) الواثق بن موسى: ٨٠٣هـ/١٤٠٠م.

١٣- عبد الرحمن (الثالث) بن محمد (الثاني) ٨١٤هـ/١٤١١م.
شهران:

١٤- سعيد بن موسى: ٨١٤هـ/١٤١١م.

١٥- أبو مالك عبد الواحد بن موسى، شعبان٨١٥هـ/نوفمبر١٤١٢م
(للمرة الأولى):

١٦- أبو عبد الله محمد (الثالث)
بن عبد الرحمن (الثاني) ٨٢٧هـ/١٤٢٤م
عبد الواحد، (للمرة الثانية)،
(توفى في ٥ ذي القعدة سنة ٨٣٣هـ)

١٧- أبو العباس أحمد المعتصم بن موسى: ٨٣٣هـ/١٤٢٩م

١٨- أبو عبد الله محمد (الرابع) المتوكل بن ٨٦٦هـ/١٤٦١م
(فلان) بن يوسف:

١٩- أبو عبد الله محمد (الخامس) الثاني بن محمد، ٨٨١هـ/١٤٧٦م
(توفى في ١١ ذي القعدة سنة ٩١٣هـ):

٢٠- أبو عبد الله محمد (السادس) الثابتي، ٩١١هـ/١٥٠٥م
(أصبح حاكماً من قبل الإسبانيين سنة ٩١٨هـ):

٢١- أبو محمد عبد الله (الثالث) بن محمد (الرابع): ٩٣٤هـ/١٥٢٦م
استولى أروج على تلمسان في ذي الحجة سنة ٩٢٣هـ.

٢٢- أبو محمد عبد الله (الثاني) بن محمد (الرابع): ٩٣٤هـ/١٥٢٦م

٢٣- أبو زيان أحمد (الثالث) بن عبد الله (الثاني): رمضان ٩٤٧هـ/
(للمرة الأولى)، (أقصاه الإسبانيون ديسمبر ١٥٤٠م
في ٣٠ ذي القعدة سنة ٩٤٩هـ):

٢٤- أبو عبد الله محمد (السابع) بن عبد الله (الثاني) المحرم ٩٥٠هـ/
أبو زيان أحمد (الثالث)، (للمرة الثانية)، أبريل ١٥٤٣م
(عامل عثماني) ربيع الأول ٩٥٠هـ:

٢٥- الحسن بن عبد الله (الثاني)، توفى بوهران ٩٥٧هـ/١٥٥٠م
سنة ٩٦٣هـ)، (تنصر ولده) استولى صلاح
رئيس باشا على تلمسان نهائياً: ٩٦٢هـ

وكتاب تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان لابن الأحمر من الكتب الهامة من الدراسات التاريخية المغربية الأندلسية حيث يتناول فترة هامة من فترات المغرب الإسلامي فلهذا حرصت كل الحرص على تقديم هذا العمل بتحقيق جديد وكشافات وفهارس علمية.

وصاحب هذا العمل المؤرخ والأديب إسماعيل بن يوسف الخزرجي الأنصاري النصري أبو الوليد المعروف بابن الأحمر هو غرناطي الأصل، إقامته ووفاته بفاس. له عدة مصنفات منها "نثر الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان"، و"نثير أفراد الجمان في نظم فحول الزمان" من أهل المائة الثامنة. و"مشاهير بيوتات فاس" اختصره أبو زيد الفاسي و"حديقة النسرين في أخبار بني مرين" و"البديع في وصف الربيع" ومات سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م. وقد قمت بفحص النسخة التي طبعت بالمغرب إلى جانب عدة مخطوطات الموجودة بدار الكتب المصرية ومعهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

وأسأل الله العون والمغفرة يا أرحم الراحمين والله خير معين.

القاهرة في ١٤١٣هـ-٢٠٠٠م

هاني سلامة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف*

ذكر الدولة الزيانية العبد الوادية بتلمسان

لما فرغت من الدولة المرينية في هذا المصنف، وأتيت من أذان اجمالها بالمفرط والمشنف، وكنت لأعدائها بالمعنف ولم أك بالمصنف.(١)

جئت أثبت ما ظهر لمرين من المعالي، المستعلية على المضاهي والمعالي، حيث الملك المريني يزهي بفوارس الكفاح، المتابطين بسمر العوالي وبيض الصفاح، ممن لهم الغلبة على أعدائهم، من بني عبد الوادي المحقرين، الأذلة المصغرين حيث هم لبني مرين نهبة أسيافهم، والمجدلين بفرقهم في أخيافهم وأسيافهم، مما تكرر فيهم المرين من الوقائع التي عرفت، والتي أوجه المداح إليها صرفت. إذ صرموا ملكهم غيره مرة بالهزائم، ونازلوهم في عقر ديارهم بالعزائم، واستمر المرير بذلك في أولهم وفي أعقابهم، لما أمكن الله أيدى الحماسة من أرقابهم شنشنة عرفت من أخزم، عليها عول البطش وأجزم.

* العنوان من عندنا.

(١) من قراءة النص نجد أن ابن الأحمر دائماً يجامل بنو زيان الذين يدخلون في طاعة بني مرين.

وبعد ذكر ما وقع لمرين فيهم من الفتك في الحروب، أتى بذكر مساويهم في بلدهم المخروب، وما أقول وهم عجزوا عن مجادلة السيف، ومجابهة الحركات المرينية لهم في الشتاء والصيف، حتى أنهم إذا سمعوا بالمحلة المرينية ضربت بظاهر البيضاء[1] يفرقون بتلمسانهم كنسائهم من السواد والبيضاء وإن كان السلطان المريني على النزهة في بلادعول. فهم يعتقدون أن السير إليهم وكل على ذلك هول، فيفرون قبل الملاقاة إلى الصحراء، وينبذون أولادهم مع نسائهم بالعراء، ويتركون الجدال في الإقامة بدحض المراء، فتضجر رعيتهم منهم ، ولا يرفعون الذم عنهم فأقول عند ذكر كل أمير منهم مساويه، التي وايم الله مارئى في مستقبحاته من يساويه، فها أنا أشرع في التاريخ على مايرضى الدولة المرينية، أولى الشهامة أسود الأجمات المرينية.

(١) وهي ما تعرف بمدينة فاس الجديد.

ذكر إمارة الأمير يغمراسن بن زيان العبد الوادي[1]

فأولهم جدهم يغمور، الذي في قبره من خوف مرين

(١) هو يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد العبد الوادي أمير المسلمين أبو يحيى أول من استقل بتلمسان من سلاطين "بني عبد الواد" بويع يوم مقتل أخيه زيان بن زيان سنة ٦٣٣هـ وكانت الدعوة في تلمسان لبني عبد المؤمن، وقد ضعف أمرهم وثار عليهم صاحب إفريقية "أبو زكريا الحفصي" ووصل بجيشه إلى تلمسان، فخرج منها يغمراسن بأهله وماله إلى الصحراء وأرسل إليه الحفصي يدعوه، فلم يجب وانتهى الأمر بينهما بالصلح. وعاد الحفصي إلى إفريقية ويغمراسن إلى تلمسان. وأقبل "السعيد المؤمنى" من مراكش سنة ٦٤٦هـ يريد حرب الحفصي بإفريقية، فلما اقترب من تلمسان أفرج له يغمراسن عنها، منحازاً إلى جبل قريب منها، رغبة في السلم، فقصده والسعيد، فاقتتلا فقتل السعيد، وظفر يغمراسن بما معه من ذخائر الدولة المؤمنية "كالمصحف العثماني" و"العقد اليتيم" وما كان لجيشه من متاع ومال. وكان ذلك بدء استقلال بني عبد الواد في تلمسان وأغادير وتلك أنحاء وهو أول من خلط زي البداوة بأبهة الملك، في تلك الدولة، وكان شجاعاً فاضلاً حليماً متواضعاً، يكثر من مجالسة العلماء والصالحين، وصاهر بني حفص أصحاب تونس، فزوج ابنه "عثمان" بابنة إبراهيم بن عبد الواحد الحفصي، وخرج للقائها بمليانة (Milyana) وبينما هو عائد أدركته الوفاة في وادى شلف Oued Chelif سنة ٦٨١هـ/١٢٨٣م وكان قد ولد سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م، وحمل إلى تلمسان فدفن فيها. ومدة إمارته ٤٤ سنة وخمسة أشهر و ١٢ يوماً. وكان أسلافه يقولون أنهم من الأشراف، فسئل عن رأيه في صحة هذا النسب فقال: "إن كان المراد شرف الدنيا فهو ما نحن فيه، وإن كان القصد شرف الأخرى فهو عند الله.
أنظر المزيد في :بغية الرواد ١٠٩/١-١١٦، تاريخ ابن الوردي/٢٣٠.

يغمور[١]، بويع بتلمسان عام ٦٣١[٢] ومات بها في سنة ٦٨١[٣] وله ٨١ سنة[٤] وكانت دولته ٥٠ سنة و ٥ أشهر.

صفته: أبيض اللون، ربعة أشقر الشعر.

ولما مات وجعلوه في قبره لم تقبله الأرض ولفظته من جوفها إلى أن دفن بإزاء قبر الشيخ الصالح محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي،[٥] فقبلته

(١) اتهم بعض المؤرخين وكتاب التاريخ يغمراسن بالضعف والجبن وهذه تهمة بعيدة كل البعد عن الحقيقة، فقد كان يغمراسن من أقوى فرسان عصره، وقد وصفه لسان الدين الخطيب في كتاب رقم الحلل بهذه الأبيات

أول املاكهم يغمور   ليث الشرى والبطل المشهور

تثنى عليه حومة الميدان   مالا مرئ بيأسه يدان

لا في الجموع من بني مرين   كالليث يحمي جانبه العرين

في هذه الأبيات وصف لسان الدين يغمراسن بأنه آية من الآيات في جرأته ورجولته ودهائه ومواقفه شهيرة وسلاحه في الجفوة مثل وسياسته عجيبة. وقال أيضاً في حقه ابن خلدون في كتابه العبر جـ٧ ص ١٦٣ "كان يغمراسن من أشد هذا الحي بأساً وأعظمهم في النفوس، مهابة وجلالة وأعرفهم بمصالح قبيلته وأقواهم كاملاً على حمل الملك واضطلاعاً بالتدبير والرياسة، مهدت له بذلك آثار قبل الملك هو بعده، وكان مرموقاً بعين النجلة، مؤملاً للأمر عند المشيخة وتعظمه من أمره عند الخاصة ويفزع إليه في النوائب العامة".

(٢) في يوم الأحد ٢١ من ذي القعدة يوم وفاة أخيه الأمير قبله أبي عزه زيدان.

(٣) يوم الأثنين ٢٩ من ذي القعدة.

(٤) ورد ذلك في بغية الرواد ليحيى بن خلدون وكان مولده سنة ٦٥٤هـ.

(٥) له ذكر في كتاب البستان لابن مريم.

الأرض وواراه التراب. فعلم أن ذلك ببركة جوار هذا الصالح، أخبرني بذلك الشيخ الصادق اللهجة أبو الحسن على بن محمد بن محمد بن قاسم القيسي التلمساني المعروف بالميورقي حسبما أخبره بذلك والده محمد عن أبيه محمد وكان أدرك يغمراسن وشاهد دفنه وعاين ذلك وكان خامل الأب كان والده زيان بن ثابت قد ولاه خراج مدينة تلمسان أمير المؤمنين يعقوب[١]

(١) هو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي الموحدي أبو يوسف، المنصور بفضل الله من ملوك الدولة المؤمنية في المغرب الاقصى، ومن أعظمهم أثاراً. ولد بقصر جده "عبد المؤمن" بمراكش وبويع له بعد وفاة أبيه سنة ٥٨٠هـ وكان معه في وقعة "شنترين" فرجع إلى أشبيلية واستكمل البيعة، ووجه عنايته إلى الإصلاح، فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات وخرج عليه ابن غانية فقابله بجيش ضخم، فشتت شمله سنة ٥٨٣هـ وجهز سنة ٥٨٥هـ جيشاً من الموحدين ففتح أربع مدن من بلاد الفرنج كانوا قد أخذوها من المسلمين قبل ذلك بأربعين سنة وخافه ألفونس (صاحب طليطلة) يسأله الصلح فهادنه خمس سنين. ولما انقضت الهدنة كان الفرنج قد جمعوا خلقاً كثيراً من أقاصي بلادهم وأذانيها، فقابلهم المنصور وكسرهم، بعد معارك شديدة سنة ٥٩٢هـ وعقد معهم صلحاً آخر إلى مدة خمس سنين. وعاد إلى مراكش سنة ٥٩٢هـ فتوفى في سلا. وكان شديداً في دينه، أمر برفض فروع الفقه ونهى الفقهاء عن الإفتاء إلا بالكتاب والسنة، وأباح الاجتهاد لمن اجتمعت فيه شروطه، وأبطل التقليد وإليه تنسى الدنانير "اليعقوبية" المغربية. من آثاره الباقية بمراكش إلى الآن "باب أكنا" وهو ضخم عظيم، والجامع الأعظيم المنسوب إليه، وهو أول من كتب العلامة بيده من ملوك الموحدين "الحمد لله وحده" فجرى عملهم على ذلك، وبنى كثيراً من المدارس والمساجد في بلاد إفريقية والمغرب والأندلس وبنى مستشفيات للمرضى والمجانين أجرى عليها الأرزاق وجعل للفقهاء وطلبة العلم مرتبات وبنى صوامع وقناطر كثيرة. وحفر آباراً للماء وهو الذي أمر ببناء "رباط الفتح" وكان من أطبائه أبو بكر بن الطفيل. وكان مولده سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م ومات سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩م.

أنظر المزيد في: الاستقصا ١/١٦٤-١٨٤، وفيات الأعيان ٢/٣٢٥، نفح الطيب ٢/٧٣٨، تاريخ ابن خلدون ٦/٢٤١، مرآة الجنان ٣/٤٧٩ جذوة الاقتباس ٣٤٨، الكامل ١٢/٥٧، الحلل الموشية ١٢١، مرآة الزمان ٨/٣٧٤، ٤٤٦، ٤٤٩، ٤٦٤-٤٦٨، الأنيس المطرب ١٥٣.

الموحد ملك المغرب ثم حاسبه على ذلك الخراج فوجده قد احتجنه لنفسه، فامتحنه وضربه بالسياط وحبسه بموضع من سوق الاسكافيين، وكان بإزاء ذلك الدكان إسكافي يقال له علي بن المعلم فكان هذا الإسكافي يرفق به ويتصرف في جميع شؤونه إلى أن أخرجه أمير المؤمنين يعقوب المنصور الموحد من اعتقاله، ولذلك نال الحظوه والجاه ابن هذا الاسكافي عند يغمراسن بن زيان، وهو الفقيه الكاتب صاحب الاشتغال منديل بن الاسكافي علي بن المعلم؛ رعى له يغمراسن ما فعل مع أبيه زيان فرده من كتاب حضرته أدركت أنا ولده الكاتب علي في الحضرة المرينية وهو يكتب البطاقة فيها. وبايع الأمير يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص[1] الموحد، وخطب له على منابر بلاده وناداه، بمولانا وتابعه في ذلك من تابعه من بنيه إلى حفيده أبو حمو الأكبر،

(١) هو يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاني الحفصي أبو زكريا أول من استَقّل بالملك ووطد أركانه من ملوك الدولة الحفصية بتونس، ثار على أخيه عبد الله واستمال إليه الجند، فتغلب على الملك سنة ٦٢٥هـ وكانت الخطبة لبني عبد المؤمن أصحاب مراكش فقطعها واستقل بدولته سنة ٦٢٦هـ وخطب لنفسه . وفي أيامه استفحلت فتنة ابن غانيه فقتله سنة ٦٣١هـ ووجه نظره إلى توسيع ملكه فاستولى على الجزائر وتلمسان وسجلماسة وسبتة وطنجة ومكناسة، وخافه فريريك الثاني فهادنه عشر سنوات، وخدم العلم فأنشأ عدة مدارس ومساجد وجعل لها لأوقاف وأنشأ داراً للكتب جمع فيها ٣٦٠٠٠ مجلد وكان كاتباً شاعراً كثير الإحسان للمستورين.

قال صاحب "خلاصة تاريخ تونس" وأبو زكريا "هذا هو الذي ابتنى جامع القصبة وصومعته الجميلة الشكل، ونقش عليها اسمه وأذن فيها بنفسه ليلة تمامها غرة رمضان سنة ٦٣٠هـ وكانت وفاته سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م وكان مولده سنة ٥٩٨هـ/١٢٠٢م، ودفن في جامعها ثم نقل إلى قسنطينة.

أنظر المزيد في:: الخلاصة النقية ٦٠، الدولة الحفصية ٤٣-٥٤، المؤنس ١١٨-١٢٠، فوات الوفيات ٣٢١/٢، أزهار الرياض ٢٠٨/٣، تاريخ ابن خلدون ٢٨٠/٦-٢٨٥، صبح الأعشى ١٢٧/٥، التعريف بابن خلدون ١١، خلاصة تاريخ تونس ١٠٧.

ويخاطبهم الملوك من الموحدين بالشيخ ، ولم يكن خطابهم لهم بالسلطان ولا بالأمير وإنما بالشيخ فقط ، والأمراء من بني عبد الوادي يخاطبون الملوك من الموحدين : من عبد المقام الكريم فلان بن فلان إلى مولانا أمير المؤمنين فلان، وكان الملوك من الموحدين يبعثون إلى كل أمير من بني عبد الوادي بعشرة من كبار الموحدين فيهم حفصى وواحد من بني عم السلطان يقعدون معه بتلمسان يشاورهم الأمير من بني زيان في أمور مملكته لا يفصل في شئ إلا بمشورتهم ، جرى ذلك من يغمراس إلى ابنه عثمان[1] وانقطع ثم يزالوا يبايعونهم إلى أن خلع طاعتهم أبو حمو[2] الأكبر والد أبي تاشفين

(١) هو عثمان بن يغمراسن بن زيان أبو سعيد من بني عبد الواد صاحب تلمسان في المغرب الأوسط وليها بعد وفاة أبيه سنة ٦٨١هـ وبدأ باخضاع بعض البلاد الخارجة عن نطاق دولته فأحرق قرى بجاية Bougie واستولى على مازونة Maxouna وعلى بلاد أخرى وهاجمه السلطان يوسف بن يعقوب المريني سنة ٦٨٩هـ فهزمه أبو سعيد وجدد زحفه على من استمالهم المريني فدوخ بلادهم وأعاد السلطان يوسف كرته عليه سنة ٦٩٥هـ و ٦٩٦هـ و٦٩٧هـ ففشل في غاراته كلها ثم تمكن من محاصرة أبي سعيد في قاعدة ملكه ونقض كثير من القبائل طاعته واشتد الضيق على تلمسان "وهلك الناس بالجوع والسيف والمنجنيقات" فتوفى أبو سعيد محصور فيها سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٤م وكان مولده ٦٣٩هـ/١٢٤١م. ومدة دولته ٢١ سنة إلا شهراً.

أنظر المزيد في بغية الرواد ١١٧/١-١٢١.

(٢) هو موسى الأول بن عثمان أبي سعيد بن يغمراسن بن زيان أبو حمو رابع سلاطين بني عبد الواد من آل زيان في تلمسان وبلاد المغرب الأوسط كان عضداً لأخيه السلطان أبي زيان في حربه وسلمه وخلفه بعد وفاته سنة ٧٠٧هـ وشغل بإصلاح مدينة تلمسان وتحصينها للدفاع عنها أمام غارات المرينيين وكان "فظاً غليظاً حازماً يقظاً" أخضع كثيراً من القبائل المجاور له في الشمال والجنوب وولى عليهم أصاغرهم وأخذ رهائنهم وأوغلت جنوده في :لزحف شرقاً، فبلغت بجاية وقسنطينة وهما من بلاد الدولة الحفصية بتونس وصد المرينيين عن التقدم من جهة الغرب وساد بلاده الأمن واستكثر من الضرائب للإنفاق على الجيش وحقد عليه ابنه أبو تاشفين لتقديمه غيره عليه فبينما كان السلطان في الدار البيضاء فاجأه أبو تاشفين ببعض رجاله والسلاح مشهور بأيديهم فقتلوه وقتلوا حاشيته ومدة ملكه نحو عشر سنين. ولد سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م ومات سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م.

أنظر المزيد في: بغية الرواد ١٢٦/١-١٣٢، دائرة المعارف الإسلامية ٣٢٧/١، أزهار الرياض ٢٤٨/١.

الأكبر[1]، وتغلب عليه الأمير أبو زكريا الموحد ودخل عليه تلمسان عنوة، ثم صفح ورده إليها على أن يكون له يغمراسن عاملاً عليها فوجه إليه مفاتيحها وأحسن إليه، وعمل له في بلاده رماحاً برسم اعانة، وقدر ذلك عشرون ألف دينار في كل عام، فكانت ثابتة من بجاية.

ولم يزل يغمراسن مع ملوك الموحدين في ذل وهول ينادونه الشيخ ويناديهم بمولانا رأيت ذلك في كتبه لهم، وهي من إنشاء الكاتب أبي بكر بن خطاب الأندلسي.

ولبني مرين عليه وقائع جمة نصرهم الله عليه ولم ينصره عليهم، منها

(١) هو عبد الرحمن بن موسى الأول (أبي حمو) بن أبي سعيد بن عثمان بن يغمراسن الزناتي أبو تاشفين من ملوك وسلاطين بن عبد الواد "تلمسان وأطرافها" في المغرب الأوسط قتل أباه وحل في الملك محله سنة ٧١٨هـ وانصرف إلى عمران بلاده وكان فيه ميل إلى النعيم واللهو مجمع ألافاً من أهل الصناعات من أسرى الروم فبنوا له مصانع وقصوراً وغرس حدائق ومتزهات فكان أكثر سلاطين هذه الدولة آثاراً وغزا القبائل المجاورة له على عادة أسلافه، فهابه الناس ووجه بعض قواده لإزعاج "الموحدين" أصحاب المغرب الأقصى فبلغوا قسنطينة وأغاروا على بجاية سنة ٧٢٢هـ وأمر ببناء بعض المدن وأرسل إليها الزروع والأقوات واستمر عزيز الجانب رفى العيش إلى أن اشتد ما بينه وبين السلطان أبي الحسن المريني صاحب مراكش وزحف هذا على تلمسان فأطاعته بلادها الشرقية، وحصر تلمسان وبنى في غربيها مدينة "المنصورة" ثم دخلها عنوة وثبت له السلطان أبو تاشفين بخاصة رجاله، يقاتلون دون الحرم والأموال بعد أن تفرق عنهم الجند والأنصار، فقتلوا جميعاً على باب القصر، وزال ملك بني عبد الواد إلى حين. ولد سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣م ومات سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م.

أنظر المزيد في : بغية الرواد ١/١٣٢-١٤٢، تاريخ ابن خلدون ٧/١٠٤-١١١، شذرات الذهب ٦/١١٥.

الوقيعة التي للسلطان أبي يحيى بن عبد الحق المريني عليه[1]، ارتحل الأمير أبو يحيى بن يحيى بن عبد الحق عن دار ملكه مدينة فاس إلى يغمراسن، فوصل يغمراسن إلى قرب تازا ومعه الأمير عبد القوي بن العباس التجيبني فوصل الأمير أبو يحيى ابن عبد الخالق إلى تازا فأقام بظاهرها ثلاثة أيام، ثم ارتحل عنها إلى لقاء يغمراسن، فلما علم يغمراسن بقدوم أبي يحيى بن عبد الحق فرق منه وكر راجعاً إلى تلمسان، فتبعه أبو يحيى بن عبد الحق إلى وادي يسلي من أحوز وجدة، فكانت بينهما هناك حروب عظيمة صبر فيها آل مرين وهزموا يغمراسن هزيمة شنعاء وقتلوا حماته، ففر يغمراسن وترك أمواله وأبنيته فاحتوى السلطان أبو يحيى بن عبد الحق، وبنو مرين على ذلك كله، وقتل فيها من بني عبد الوادي جماعة من خيارهم وأنجادهم. وهي أول حرب كانت بين أولاد عبد الحق

(١) هو عبد الحق بن عثمان بن أحمد أبو محمد المريني آخر ملوك بني مرين من بني عبد الحق بالمغرب. قال السلاوي "وهو أطولهم مدة، وأعظمهم محنة وشدة" ولى بفاس بعد وفاة أبيه سنة ٨٢٣هـ وترك التصرف في الملك إلى وزرائه وحجابه -على طريقة أبيه- وفي أيامه استولى البرتغال على "قصر المجاز" وخرب بعد ذلك وكان ممن ولى وزارته يحيى بن زيان الوطاسي وقتل ظلماً سنة ٨٥٣هـ وخلفه قريبه على بن يوسف الوطاسي وتوفى سنة ٨٦٥هـ وتولى الوزارة بعده يحيى بن يحيى بن زيان واستبد هذا بالأمر وأشرك معه أقاربه، فراع السلطان استحواذ الوطاسيين على أمور الدولة فنكل بهم وقتل أكثر من كان منهم بمدينة فاس في يوم الأربعاء مستهل المحرم سنة ٨٦٦هـ غير أنه ختم حياته شر ختام فاستوزر من بعدهم يهودين، اعتز بهما يهود فاس وتحكموا في الأشراف والفقهاء، وضرب إحداهما امرأة فاستغاثت فثار الناس وأعملوا القتل في اليهود ونادوا بخلع السلطان وولوا عليهم الشريف أبا عبد الله الحفيد وكان السلطان غائباً عن المدينة فأجبره من معه على العودة إليها فانتزعوا منه خاتم الملك وأركبوه بغلاً وطافوا به وأمر الحفيد بضرب عنقه فقتل سنة ٨٦٩هـ/١٤٦٥م وبمهلكه انقرضت دولة بني مرين في المغرب.

أنظر المزيد في الاستقصا ٢/١٤٩، جذوة الاقتباس ٢٧٤-٣٣٦.

وأولاد عبد الوادي ثم رجع الأمير أبو يحيى بن عبد الحق إلى فاس وهو مؤيد منصور وذلك في سنة ٦٤٧هـ ثم خرج الأمير أبو يحيى بن عبد الحق من فاس، فوصل إلى وجده ففر يغمراسن أمامه عن تلمسان، ولم يلقه فرجع عنه دون قتال وذلك في سنة ٦٥١هـ.

ثم تحرك السلطان يعقوب بن عبد الحق من فاس إلى يغمراسن في جيش لجب فتسمع يغمراسن باقباله عليه فالتقى الجمعان بوادي تلاغ بالقرب من وادي ملوية فدم القتال بين الفريقين من وقت الضحى إلى صلاة الظهر، وصبرت مرين لقتال عدوها صبر الكرام إلى أن منحهم الله تعالى النصر على بني الوادي، فهزموهم وأذاقوهم الحمام في ذلك الوادي، وفر أميرهم يغمراسن على وجهه مهزوماً وقتل أعز أولاده عنده عمرو أكبر ولده، وقتل ولد عبد الملك بن حنينه وأبو يحيى بن محمد؛ وعمر بن إبراهيم بن هشام، وجماعة من أشراف بني عبد الوادي، وولت عبد الوادي الأدبار، وسار السلطان يعقوب ابن عبد الحق برأياته المنصورة وكتائبه المظفرة في أعقابهم وسيوفه تصفع في قفيهم، فدخل يغمراسن تلمسان مهزوماً خاسراً فقيراً، وتفرقت جيوش عبد الوادي، فما منهم إلا قتيل أو جريح أو خائف أو شريد، وانتهت بنو مرين جميع ما كان في عسكرهم من الخيل والأموال والسلاح، وكانت هذه الهزيمة يوم الاثنين الثاني عشر من جمادي الآخرة من سنة ٦٦٦هـ.

ثم تحرك السلطان يعقوب بن عبد الحق إلى يغمراسن، وارتحل يغمراسن إلى لقائه فالتقى الجمعان بوادي إيسلي على مقربة من وجدة، فانجلت الهزيمة

على يغمراسن، وقتل ولده فارس، فولى هارباً مهزوماً جريحاً لا يلتفت ولا يلوي على من تعذر من قومه بني عبد الوادي، وعاث القتل فيهم، فقتل نحو خمسمائة من الروم الذين كانوا خدامه، وانتهبت مرين محلة يغمراسن وسبوا نساءهم وكانت هذه الكائنة في منتصف رجب سنة ٦٧٠هـ.

ثم ارتحل السلطان يعقوب من الغد تابعاً له حتى وقف على وجده، فأمر بها فهدمت حتى تركها قاعاً صفصفاً ثم ارتحل حتى أحاط بتلمسان ويغمراسن بها محاصر، فقاتلها، وانتسف ضياعها وجناتها، وبعث السرايا على بواديها وأحوازها ينهبون ويخربون القرى والعمارات، ولم يزل يغمراسن نهبة سيوف مرين إلى أن مات.

ذكر إمارة ابنه الأمير عثمان بن يغمراسن[1]

بويع بتلمسان بعد موت أبيه[2] في سنة ٦٨١هـ ومات[3] بها في ذي القعدة عام ٦٩٣هـ في حصار السلطان أبي يعقوب بن السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني، وله خمس وخمسون سنة وكانت دولته ١٢ سنة.

صفته: أبيض اللون، معتدل القامة.

وكان نهبة لسيوف بني مرين كأبيه يغمراسن، تحرك إليه السلطان أبو يعقوب بن السلطان يعقوب بن عبد الحق من فاس إلى تلمسان عام ٦٩٥هـ وآب إلى فاس، ثم تحرك إليه أيضاً في عام ٦٩٦هـ فنازله بتلمسان وهو عام القباب، ثم تحرك أيضاً ٦٩٧هـ فنازله بتلمسان وتسمى بحركة الدار الحمراء

(١) هو عثمان بن يغمراسن بن زيان أبو سعيد من بني عبد الواد صاحب تلمسان في المغرب الأوسط ولد سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م. وليها بعد وفاة أبيه سنة ٦٨١هـ وبدأ باخضاع بعض البلاد الخارجة عن نطاق طوله فأحرق قرى بجاية واستولى على مازونه وعلى بلاد أخرى، وهاجمه السلطان يوسف بن يعقوب المريني سنة ٦٨٩هـ فهزمه أبو سعيد وجدد زحفه على من استماله المريني فدوخ بلادهم وأعاد السلطان يوسف كرته عليه سنة ٦٩٥هـ و٦٩٦هـ و ٦٩٧هـ . ففشل في غاراته كلها ثم تمكن من محاصرة أبي سعيد في قاعدة ملكه ونقض كثير من القبائل طاعته واشتد الضيق على تلمسان. "وهلك الناس بالجوع والسيف والمنجنيقات" فتوفي أبو سعيد وهو محصور فيها سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٤م ومدة دولته ٢١ سنة إلا شهراً.

أنظر المزيد في بغية الرواد ١/١١٧-١٢١

(٢) في أوائل ذي الحجة.

(٣) يوم السبت فاتح ذي القعدة عام ٧٠٣هـ.

ثم تحرك إليه أيضاً فنازله بتلمسان عام ٦٩٨هـ وشرع في بناء المدينة التي أحدث بظاهر تلمسان سماها تلمسان الجديدة، وأقام عليها محاصراً لها إلى أن مات بعد أن ضيق على أهلها بالحصر سبعة أعوام حتى أكلوا الجيف والحشرات وجميع الحيوانات من الفيران والعقارب والحيات والضفادع وغير ذلك، حتى أكل بعضهم بعضاً وكانوا يفرطون ويجعلون غائطهم في الشمس حتى يعود يابساً فيطبخونه ويأكلونه، وهو في كل ذلك يشدد عليهم الحصر ويقول لأواصلنه عليهم حتى أقتلهم جوعاً، ثم مات الأمير عثمان هذا في ذلك الحصر، وبويع ابنه محمد في الحصر وسيوف مرين تصفع في قفيهم.

ذكر إمارة ابنه الأمير محمد بن عثمان بن يغمراسن[١]

بويع بتلمسان وهي محصورة من قبل السلطان أبي يعقوب المريني في ذى القعدة سنة ٦٩٣هـ[٢]، ومات وهو في حصر السلطان أبي يعقوب المريني في شوال عام ٦٩٧هـ[٣]، وله ٤١ سنة[٤] وكانت دولته أربعة أعوام.

صفته: درى اللون في عينيه نكته بياض.

---

(٢) هو محمد أبو زيان الأول بن عثمان أبي سعيد بن يغمراسن بن زيان من بني عبد الواد السلطان الثالث من أسرة بني زيان بتلمسان. كان فاضلاً لين الجانب ولد سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م، بويع بعد وفاة أبيه سنة ٧١٣هـ وقاعدته تلمسان محصورة، تغاديها وتراوحها منجنيقات السلطان يوسف بن يعقوب المريني فصبر على مضض حتى ضاق ذرع أهلها واتفقوا على الخروج إلى العدو "فإما ملك أو هلك" وعينوا لخروجهم يو ٧ ذي القعدة ٧٠٦هـ وفي هذا اليوم وثب على السلطان يوسف خصي من مواليه، فاغتاله بطعنة خنجر، واضطرب قادة جيشه فبرز أبو زيان مقتل أبا سالم المريني (ابن السلطان يوسف) وعقد الصلح مع أبي ثابت (حفيده) وفك الحصار عن تلمسان بعد استمر ثماني سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيام وقد مات من أهلها فيه زهاء ١٢٠ ألف نسمة. ونهض السلطان أبو زيان وأخ له كنيته "أبو حمو" فأعاد إلى الطاعة من عصى من قبائل مغراوة وتجين وغيرهما وعاد السلطان فاعاد إلى الطاعة من عصى من قبائل مغراوة وتجين وغيرهما وعاد السلطان إلى تلمسان وقد "ظهر البلاد من الفساد" فأمر بإصلاح ماهدمه الحصار من الدور والقصور، ولم يلبث أن وافته منيته سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٨م ومدة ملكه أربع سنوات إلا سبعة أيام.

أنظر المزيد في : بغية الرواد ١/١٢٦،١٢١.

(٣) يوم الأحد ٢ ذي القعدة عام ٧٠٣هـ.

(٣) صبيحة يوم الأحد ٢١ شوال عام ٦٦٧هـ.

(٤) وعمره ٤٨ سنة.

ذكر إمارة أخيه الأمير أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن[١]

بويع بتلمسان بعد أخيه محمد وهو في حصر السلطان أبي يعقوب المريني في شوال سنة ٦٩٧هـ[٢] وقتله أبو تاشفين ابنه في جمادى[٣] الأخرى من عام ٧١٨هـ وله ٥٣[٤] سنة وكانت دولته ٢١ سنة[٥].

صفته: كان أبيض اللون، تعلوه صفرة قوية، ربعة بادن الجسم.

---

(١) هو موسى الأول بن عثمان أبي سعيد بن يغمراسن بن زيان أبو حمو، رابع سلاطين بني عبد الود من آل زيان في تلمسان وبلاد المغرب الأوسط ولد سنة ٦٦٥هـ /١٢٦٧م كان عضداً لأخيه السلطان أبي زيان في حربه وسلمه وخلفه بعد وفاته سنة ٧٠٧هـ وشغل ياصلاح مدينة تلمسان وتحصينها للدفاع عنها أمام غارات المرينيين، وكان "فظاً غليظاً حازماً يقظاً" أخضع كثيراً من القبائل المجاورة له في الشمال والجنوب، وولى عليهم أصاغرهم وأخذ رهائنهم وأوغلت جنوده في الزحف شرقاً، فبلغت بجاية وقسنطينة وهما من بلاد الدولة الحفصية بتونس وصد المرينيين عن التقدم من جهة العرب وسادة بلاد الأمن واستكثر من الضرائب للإنفاق على الجيش وحقد عليه ابنه "أبو تاشفين" لتقديمه غيره عليه. فبينما كان السلطان في "الدار البيضاء" وقتلوا حاشيته سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م ومدة ملكه نحو عشر سنين.

أنظر المزيد في: بغية الرواد ١/١٢٦-١٣٢.

(٢) بل في يوم الأحد ٢١ شوال عام ٧٠٧هـ.

(٣) يوم الأربعاء ٢٢ جمادى الأولى.

(٤) مولد عام ٦٦٥هـ.

(٥) بل ١٠ سنين و ٧ أشهر.

ذكر الأمير أبي تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو بن عثمان بن يغمراسن

بويع بتلمسان بعد أبيه[1] في شهر جمادى الأخرى سنة ٧١٨هـ وتله السلطان المولى أبو الحسن على المريني في يوم الأربعاء ٢٧ رمضان[2] سنة ٧٣٧هـ وله ٤٣ سنة[3] وكانت دولته ١٩ سنة.

صفته: كان أبيض مشرباً بحمرة، ربعة بادن للجسم، وكان فاسقاً منغمساً في اللذات خليعاً لا يصحو من شرب الخمر، وكان فيه تخنث حتى سمي بزهيرة[4].

وتحرك إليه المولى السلطان أبو الحسن المريني فنازله بتلمسان في شوال من عام ٧٣٥هـ ، وضيق عليه ونشر عليه الحرب ونّصب عليه المجانيق إلى أن دخلها عليه غنوه في يوم قتله، واستولى على أمواله وحرمه، وبقتله انقرضت الدولة الوادية على يد المولى السلطان أبي الحسن المريني، وحز رأسه ورؤوس أبنائه عثمان ومسعود ويوسف، ورأس وزيره موسى بن على بن حسن الكردي وطيف بهم في جميع بلاد المغرب على رماح، ولم تزل مدينة بتلمسان في سنة ٧٤٩هـ وتوجه إلى فاس وترك عوضه بتلمسان عثمان بن جرار العبد الوادي

(١) يوم الخميس ٢٣ جمادى الأولى.

(٢) ٢٨ رمضان.

(٣) ورد عند يحيى بن خلدون في بغية الرواد جـ١ ٣٣ أن مولده ٦٩٢هـ فبذلك يكون عمره ٤٥ عاماً.

(٤) كذلك أيد هذا الرأي عدد من المؤرخين وكتاب التاريخ.

فقام بها بدعوة نفسه[1].

وكان أبو تاشفين لئيماً بخيلاً مسيكا شديد الشح، أخبرني بشحه ابن وزيره عمر بن موسى بن علي الكردي بعد أن سألته عنه فقال لي: كان قد حجر على سائر الحضر بيع جميع الأقوات والخضارى[2] ولا يبتاعها إلا هو، وكان يحبس في يده قبضة الكرنب ومثلها في يده اليسرى ويقيس هذه مع هذه فإن وجد الواحدة أكبر من أختها يأمر الخضار بالنقص من الزائد.

(١) قبض عليه بعد عودة تلمسان لبني عبد الواد بعد ما أستأمن لنفسه ومات في رمضان من نفس السنة.

(٢) البقول وبائعها يدعي خضاراً.

ذكر إمارة الأمير عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان[1]

بويع بتلمسان في جمادى الأخرى عام ٧٤٩هـ وقتل ذبحاً في سنة ٧٥٣هـ وله ٥٠ سنة. وكانت دولته ٣ أعوام، وكان قد سكن الأندلس بغرناطة تحت إيالة أسلافنا الملوك من بني الأحمر هو وأبوه عبد الرحمن وأخوه أبو ثابت الزعيم وأخوه يوسف والد أبي حمو وأخوه إبراهيم.

وقتل أبوه عبد الرحمن وهو خديم لنا في معركة الخيل ، بوادي فرتونة ثم عبر البحر عثمان بن عبد الرحمن هذا إلى العدوة فاستقر خديماً بالحضرة المرينية في دولة المولى أمير المسلمين أبي الحسن يرسل في السرايا والحصص وهو مرؤوس تحت حكم قائد الجيش ثم قام بتلمسان فتحرك إليه السلطان أبو عنان المريني من فاس فالتقى بجمعان بأنجاد فحمى لوطيس بين الفريقين وأضرمت الحرب نارها ثم كان الظهور لأبي عنان على عثمان مغلولاً ثم أخفى نفسه وأزال عنه ثياب الملك وركب على أتان وأخذ يطلب النجاة بنفسه، فلقيه من يعرفه فقبض عليه، وأتى به إلى أمير المؤمنين أبي عنان، فلما مثل بين يديه قال له الفارس لحسن الثقافة عبو بن الحسن بن زائدة بايع مولانا نصره الله تعالى فامتنع، فأخذ بحليته وجذبه منها ليبايع، وضربه الثقة علال بن محمد بن امصمود برأس سيفه في فيه فأدماه فقال للسلطان أبي عنان أيها السلطان هذا لا يليق بالملوك أن يفعلوا بالملوك أمثالهم مثل نعلك معي فاستحيا منه وكف عنه، وأمر بحبسه فامتنع من المطعم والمشرب ليموت فيستريح، ثم أمر أمير المؤمنين أبو عنان مزوار العدوتين على بن عبد الله القشيري أن يقتله ذبحاً فاحتمل معه أحد النصارى فدخل عليه في محبسه، فقال له تأهب للموت يا أبا سعيد، فقال: نعم . فاستلقى على ظهره، واستقبل القبلة وتشهد، ووضع يده في لحيته رافعاً بها عن حلقومه. وقال للنصراني أدن: افعل ما أمرت به، فذبحه الرومي بالسكين، وبعث السلطان أبو عنان بقومه من بني عبد الوادي في السلاسل كالأسارى فأدخلوا إلى فاس على تلك الحالة وسجنوا ثم أطلقوا بعد ذلك، وصاروا ينقلون الرمل على الحمير يتباعونه يتعيشون به، وأكثر نسائهم يتعيشنن بغسل الثياب في دور الحضر بفاس. وكانت تلك الهزيمة شنيعة التحم فيها من بني عبد الوادي الجم الغفير وهون بهم كما قلنا.

(١) هو عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان العبد الوادى من ملوك الدولة "العبد الوادية" في تلمسان. ولد سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م، بويع بها سنة ٧٤٩هـ وقتل ذبحاً سنة ٧٥٣هـ/١٣٥٢م.

ذكر إمارة الأمير أبي حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن[1]

بويع بتلمسان في شهر ربيع الأول [2] سنة ٧٦٠هـ وقتله محمد بن يوسف بن علال وزير المولى أمير المسلمين أبي العباس المريني بجيش بني مرين المظفر بموضع يقال له الغيران بعده نصف يوم عن تلمسان يوم الثلاثاء الرابع لذي الحجة سنة ٧٩١هـ وله ٦٨سنة ، مولده بغرناطة من الأندلس وهو تحت أيالتنا في عام ٧٢٢[3] في دولة السلطان إسماعيل عم أبينا أخي جدنا والد أبينا، وكانت دولته ٣١ سنة.

صفته: أبيض اللون في عينه اليمنى نكتة بياض.

---

(١) هو موسى الثاني بن يوسف أبو يعقوب بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن أبو حمو ويقال أبو حاميم مجدد الدولة "العبد الوادية" في تلمسان. ولد في غرناطة سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م وكان أبوه معداً إليها وانتقل إلى تلمسان في سنة ولادته مع أبيه ونشأ ذكياً فطناً أديباً، يقول الشعر وشهد زوال دولتهم الأولى في عهد أبي تاشفين سنة ٧٣٧هـ وخرج مع أبيه إلى ندرومة، وانتهى به المطاف في خبر الطويل - إلى تونس وأعانه معاصره فيها من ملوك بني حفص على القيام لاسترداد بلاده من أيدي "بني مرين" والتفت حوله جموع من القبائل وهاجم أطراف قسنطينة وزحف إلى جهة فاس واستولى بعض رجاله على أغادير ثم دخل تلمسان سنة ٧٦٠هـ وجاءته بيعة المدن المجاورة لها وانتظمت دولته واستقرت. مات سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م.

أنظر المزيد في التعريف بابن خلدون ٩٦، تاريخ ابن الفرات ٢٤٣/٩، أزهار الرياض ٢٣٨/١-٢٦١.

(٢) بعد صلاة ظهر يوم الخميس فاتح ربيع الأول.

(٣) ورد في بغية الرواد سنة ٧٢٣هـ.

وبعث الوزير محمد بن يوسف بن علال برأسه وبرأس ابنه عسير إلى المولى أمير المسلمين أبي العباس، فكان وصوله إلى فاس يوم الأحد التاسع من ذي الحجة سنة ٧٩١هـ، فطيف برأسيهما بفاس على رمحين وكان يوماً مشهوداً وكان جباناً لا يقدر على مدافعة الجيوش لمرينية خوفاً على نفسه، بخيلاً مسيكاً لا يرى في وقته أبخل منه، وكان كذاباً لا ينطق بكلمة حق غدراً خائناً غشاشاً إذا عاهد خان، وإذا وعد أخلف، ولم يكن أبوه يوسف بملك وعبد الرحمن جده والد يوسف لم يكن بملك، وجده يحيى والد عبد الرحمن ليس بملك وإنما الملك يغمراسن بن زيان.

وعليه وقائع كثيرة لبني مرين فلوا فيها حده، وصفعت سيوفهم في قفاه، فأول الوقائع عليه لبنى مرين فراره[1] عن تلمسان إلى الصحراء أمام جيش أمير المؤمنين السعيد بن أمير المؤمنين أبي عثمان المريني حين سار إليه بالجيش المريني الوزير مسعود بن رحو بن ماسى ، ولم يقدر هذا الجبان على مدافعة هذا الوزير المريني ثم عاد إلى تلمسان[2] وأقام بها بعض أشهر ، حتى أخرجه[3] منها المولى

---

(١) وكان خروج السلطان أبي حمو الثاني من تلمسان الإثنين ٢ جمادى الأولى عام ٧٦٠هـ.

(٢) في صبيحة يوم الاثنين ١ جمادى الأخرى.

(٣) وقد خرج أبو حمو من تلمسان في ٢٩ رجب عام ٧٦١هـ ودخلها السلطان أبو سالم المريني يوم الأحد ٦ شعبان وفي هذا الفتح لم يستمر إلا بضع ليال.

أمير المؤمنين أبو سالم المريني[(1)] إلى الصحراء عن فرار حين زحف إليه السلطان أبو سالم من فاس، ثم رجع إليه بعد أيام ثم خرج حتى أخرجه منها المولى أمير المسلمين أبو سالم المريني إلى الصحراء عن فرار حين زحف إليه السلطان أبو سالم من فاس ثم رجع إليها بعد أيام ثم خرج عنها فاراً إلى الصحراء لما قدم أمير

(١) هو أبو سالم المريني إبراهيم بن على بن عثمان بن يعقوب المريني السلطان المستعين بالله من ملوك بني مرين في المغرب الأقصى من بني عبد الحق كان أخوه أبو عنان (فارس) قد بعثه إلى الأندلس فاستقر بها إلى أن مات أبو عنان وبويع لابنه الطفل أبي بكر السعيد بالله، فركب أبو سالم البحر إلى ساحل بلاد غمارة ودعا أهل المغرب لمبايعته فأقبلوا عليه وكان يدير مملكة أبي كبر وزير اسمه "حسن بن عمر الفودوي" فخلع صاحبه استقبل أبا سالم مبايعاً سنة ٧٦٠هـ فاستقر في فاس الجديدة وكان من رجاله المؤرخ الأشهر "ابن خلدون" فولاه توقيعه وكتابة سره وارتاب بحسن الفودوي، فولاه مراكش أبعاداً له، وشعر لفودوي بما في نفس السلطان فترك مراكش ولحق بنادله خارجاً عليه بجماعة من بني جشم. فأرسل السلطان من جاءه به فشهره ثم قتله، ونهض إلى تلمسان فاستولى عليها وأخضع لبني زيان" ورأى أن يجعل مقامه في قصبة فاس القديمة، فانتقل إليها وخلف أحد وزرائه (عمر بن عبد الله الفودوي) أميناً على فاس الجديدة وكانت في صدر هذا حزازات على السلطان، فلما خلا له الجو اتفق مع قائد جند "النصارى" واسمه "غرسية بن أنطول Garcia Fils d'Anotole" على خلعه وعمدا إلى موسوس من بني مرين اسمه تاشفين "من أبناء السلطان على بن عثمان" فألبساه شعار الملك، وأعلن عمر الفودوي الثورة على أبي سالم ومبايعة تاشفين "الموسوس" وأمر بالطبول فقرعت، وهجم الجند على بيت المال فنهبوه، وعمت البلد الفوضى، فوصل الخبر إلى أبي سالم، فأقبل يريد الدخول فلم يستطع وتفرق عنه رجاله، فغير لباسه وأوى إلى وادى "دورغة" فعرفه بعض رجال الفودوي فقبضوا عليه وحملوه على بغل، فأمر الفودوي بقتله فقتل وحمل رأسه في مخلاه. قال لسان الدين بن الخطيب: كان السلطان أبو سالم بقية البيت – يعني المريني– وآخر القوم دماثة حياءاً وبعداً عن الشرور مات سنة ٧٦٢هـ:/١٣٦١م. ومدته سنتان و ٣ اشهر و ٥ أيام.

أنظر المزيد في: الاستقصا ٢/١٠٤–١٢٣، الحلل الموشية ١٣٥، جذوة الاقتباس ٨٣.

المسلمين عبد العزيز المريني[(1)] فدخلها السلطان عبد العزيز واستوطنها وبعث في تتبعه وزيره أبا بكر بن غازي بن الكاس إلى الدوس طرف بلاد الزاب فانهزم هنالك ودخل الصحراء حتى وصل إلى ناحية توات فبقى هناك شريداً طريداً عن الوطن وذلك في سنة ٧٧٢هـ.

ولما دخل السلطان عبد العزيز مدينة تلمسان وجد في حائط قصرها ثلاثة أبيات من شعر أبي حمو وهي:

(١) هو أبو فارس المريني عبد العزيز بن على بن عثمان المريني من ملوك الدولة المرينية بالمغرب. ولد سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م. قال السلاوي: هو الذي أنعش دولة بني مرين بعد تلاشيها، وهو الذي ذكره ابن خلدون في أول تاريخه الكبير وألفه برسمه وحلى ديباجته باسمه" كان مقيماً قبيل توليته، بفاس الجديدة كالمعتقل بأمر لوزير عمر بن عبد الله الفودوي وكان هذا الوزير قد استبد بدولة آل مرين، يعزل ملكاً ويولي آخر محتفظاً لنفسه بالسلطة المطلقة وخنق السلطان أبا زيان المريني، ووقع اختياره على أبي فارس هذا وهو فتى فاستدعاه إليه وأجلسه على سرير الملك وبايعه ثم بايعه بنو مرين وأعيان الدولة (أقر سنة ٧٦٧هـ) ولم يلبث أبو فارس أن كره استبداد الوزير به ويادارة ملكه، فأعد للخلاص منه، جماعة من الخصيان في زوايا داره، وأحضره وأشار إليهم فقتلوه، وصفا له الملك وعصاه أمير مراكش فزحف عليه وقاتله وظفر به، وأمد ابن الأحمر – صاحب غرناطة بالمال والأساطيل، وأوعز إليه بمهاجمة الجزيرة الخضراء، فاستردها من أيدي الإسبانيول وكان بنو زيان مستقلين بتلمسان فنهض إليهم شردهم ودخلها سنة ٧٧٢هـ واستولى على ما حولها، فاستوسق له ملك المغرب الأوسط وعاوده وهو في تلمسان ، مرض "النحول" وكان قد أصيب به في صغره فمات بظاهرها سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢م وحمل إلى فاس فدفن في جامع قصره.

أنظر المزيد في: الاستقصا ٢/١٢٩–١٣٣، جذوة الاقتباس ٢٦٨، الحلل الموشية ١٣٥، التعريف بابن خلدون ١٣٣–١٥٥،٢١٦.

سكناها ليالي أمنينا   وإياما تسر الناظرينا
بناها جدنا الملك المعلى   وكنا نحن بعض الوارثينا
فلما أن جلانا الدهر عنها   تركناها لقوم آخرينا

فأمر السلطان عبد العزيز بتغييرها فقالوا في التبديل:

سكناها ليالي خائفينا   وأياماً تسوء الناظرينا
بناها جدنا شيخ المعاصي   وكنا نحن شر الوارثينا
فلما أن جلانا السيف عنها   تركناها لقوم غالبينا

فلما خرج عن تلمسان فاراً أمام المولى أمير المسلمين أحمد في صفر عام ٧٨٦هـ ولم يقدر على دفاعه، وبقي في الصحراء شريداً خائفاً إلى أن عاد إلى تلمسان، وأهانه المولى السلطان أبو العباس المريني حتى رده تحت قدمه وصار له كوالى الخارج، وكان أبو حمو يعطيه مالاً معلوماً في كل سنة.

ومن جنبه أنه مارثى يجرى فرسه قط، فإن اعتذر أن ذلك من رزانته فليس الأمر كذلك إذ من شأن الملوك الكبار الذين هم أكبر قدراً منه في الحسب وضخامة الملك أن يلعبوا مع خدامهم الموالي يجري الخيل بقصد الثقافة ومعرفة ركض الخيل، وهذه عادة مطردة لهم ومن لا يفعل ذلك منهم فهو خواف على نفسه أن يقع عن الفرس من جهله بالفروسية.

وأما بخله فلم يسمع لغيره من الملوك وغيرهم، كان يذبح في كل يوم رأساً من الضأن فيأكل نصفه ويبيع نصفه بالسوق ، وقد شوهد ذلك غيرة مرة

ومن بخله ما ذكر صاحبنا صاحب أشغاله يحيى بن أبي العيش الخزرجي التلمساني قال: كانت للسلطان أبي حمو في بستانه شجرة اجاص عذبة المطعم، كبيرة الجرم ، أمرني بعد حبها على الجنان فوجدها مائة وعشرين حبة وقال لي: أنبتها في الزمام، وقال للجنان تأتيني في كل يوم بأربعة منها واحتفظ عليها فأتها في بعض الأيام بخمسة منها، فقال له من أمرك بخمسة وإنما أمرتك بأربعة فقال له: يامولاي أنسيت ذلك، فحبس أبو حمو في يده قصبة دويلة وأتى إلى شجرة الأجاص فعد الحب بالقصبة فوجدها قد نقصت قصبة طويلة وأتى إلى شجرة الأجاص فعد الحب بالقصبة فوجدها قد نقصت من كمال عددها، فقال للجنان: وأين الذي خص منها فقال: يامولاي أكله الصبي ابني، فأمر على الجنان بخمسمائة سوط، فضرب حتى أشرف على الهلاك، وحاله في البخل لا يقاس عليه من هو لئيم.

وكان قبل ملكه خامل الذكر غير نابه الاسم، لم يكن في بني زيان أحقر منه، لا أفقر، حتى أني أدركته بفاس وهو يسكن بها في عين أصليتن[1] يتعيش برد الفك للمفكوكين، وذلك في دولة المولى أمير المسلمين أبي الحسن المريني ورأيت بفاس أباه يوسف بن عبد الرحمن بعد الهزيمة عليهم بانجاد وهو في حانوت بالسقاطين ينبيع السقط، فكيف يضاهى هذا الخامل الملوك الكرام بني مرين؟ وآل مرين أهل العزة والقهر لمن سواه من الملوك، ولم يهزم عدوهم لهم راية قط، ولا احتوى على ملكهم ، بل هم أهل النصر والظفر وسيوفهم قاطعة

(١) حي معروف بعدوة فاس القرويين لايزال موجوداً بهذا الاسم.

السبا غالبة فاتكه بالأعادي من بني عبد الوادي وغيرهم رحـــم الله موتـــاهم ونصر أحياءهم.

وكان سفاكاً للدماء لايفتر عن قتل وحسبك منه، أنه قتل حافده وهـو محمد ابن ابنه أبي تاشفين ذبحاً ولم تدركه عليه شفقة الجد والـــد الأب، ومـا ذكرت فيه من القبائح هو بعض البعض من مساويه، وتركت اتباع أوصافـــه تحامياً عن الطول.

ذكر إمارة ابنه الأمير أبي تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو

قام على أبيه أبي حمو بتلمسان وفي شهر ربيع الأخر من عام ٧٨٩هـــ ومات من وجع أصابه في بطنه في شهر ربيع الأول عام ٧٩٥هـــ وله ٤٥سنة وكانت دولته أربعة أعوام.

صفته: أبيض اللون، معتدل القامة، وأمه بنت رحوى هي نجمة بنـــت أحمد زوجت بفاس – بعد الهزيمة على بني عبد الوادي بأنجاد – لرحوى ، ورأيت أبا تاشفين هذا رحوياً معه في رحى عيون الأخيرة من الرصيف بفاس وهو لابـــس من ثياب الرحويين تشامير[1] ورأسه فيه قريعة، وهو يمل على رأســـه الدقيـــق لديار الناس بقفته، ورفعته الأيام حتى سلم عليه بالإمارة، والله يؤتي ملكه مـــن يشاء.

(١) بمعنى القميص

ذكر إمارة ابنه الأمير الزعيم بن أبي تاشفين

بويع بتلمسان بعد أبيه في شهر ربيع الأول من عام ٧٩٥هـــ وقتل في شهر ربيع الثاني من السنة ، وكان غليظ القلب ، لارحمة فيه سفاكا للدماء.

ذكر إمارة عمه الأمير يوسف بن أبي حمو

بويع بتلمسان في ربيع الثاني عام ٧٩٥هـــ وقتـل في صفـر عـام ٧٩٦هـــ فكانت دولته سنة واحدة ومات وله سبع وعشرون سنة.

صفته: أبيض اللون شديد القسوة، سفاكاً للدماء.

ذكر إمارة أخيه الأمير أبي زيان محمد بن أبي حمو

بويع بتلمسان في صفر ٧٩٦هـــ وخلعه أخوه عبد الله في صفر عـــام ٨٠٢هـــ أتاه من فاس بجيش مرين بعثه المولى أمير المسلمين أبو سعيد المريـــني، وأعطاه البنود والطبول، فترل على قرب من تلمسان بالجيش المريني، فـــالتقى الجمعان، فكانت الغلبة لمرين على عادهم، وفر أبو زيان مهزوماً جريحاً، وتـــرك محلته وجميع نسائه فانتهبتها آل مرين، وبعثوا بعياله وماله لمولانا الســـلطان أبي سعيد، ثم قتل وسيق رأسه إلى الحضرة فطيف به في فاس على رمـــح، وكـــان يعطي الخراج في كل عام للمولى أبي سعيد.

ذكر إمارة أخيه الأمير عبد الله بن أبي حمو

بعثه السلطان عثمان المريني أيده الله تعالى من فاس مع جيش لجب من بني مرين فالتقى مع أخيه أبي زيان بظاهر تلمسان، ففر أبو زيان بعد الهزيمة عليه بسيوف مرين وذلك في صفر عام ٨٠٢هـ ودخل عبد الله مدينة تلمسان وكان يعطي الخراج في كل سنة للمولى أبي سعيد نصره الله وأيده، وخلع في عام ٨٠٤هـ بعث السلطان عثمان المريني الشيخ زيان بن عمر بن على الوطاسي بالجيش المريني إلى تلمسان، فدخل على عبد الله مشورة، وقبض عليه وجاء به إلى الحضرة.

ذكر إمارة أخيه الأمير محمد بن أبي حمو

بعث به السلطان عثمان نصره الله مع الجيش المريني إلى تلمسان فدخلها بسيوف مرين في ذي القعدة من عام ٨٠٤هـ وهو الآن ملك بها يعطي الخراج للمولى السلطان عثمان المريني أيده الله.

انتهى الكتاب قبل الزوال من يوم السبت الحادي والعشرين لشهر ربيع الأول عام سبعة وثمانمائة.

** انتهى بحمد الله وعونه وتوفيقه **

الكشاف العام

١ - الأعلام

٢- الأماكن الجغرافية

٣- البطون والطوائف

٤- الكتب الواردة في النص

٥- الأشعار

فهرس الموضوعات

رقم الايداع	٢٠٠٠ / ١٠١٣٦
الترقيم الدولى	977 - 5250 - 85 -4